

نشر أكثره مقالات في
جريدة الكوكب الغراء

بقلم

عبد الله بن علي النجدي القصيمي

١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٢٢_٥١٥

أن رجالا مثقفين عصريين «كهيكل» يحرصون على الدين وعلى الايمان .وكم يسرنا أن يقتدى كتابنا الأعلام، أمثال الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد والأستاذ المازنى، بهيكل ولو أنهم فعلوا ذلك لآمن الناس جميعاً أو لازداد الاقبال على الدين

رابعاً — لا ندرى لماذا لم نسمع من علماء الأزهر، أولئك الذين يغضبون للوسيلة وللطواف بالأضرحة، والذين يغضبون على الوهابيين ويكيلون لهم من السب والايذاء ماهم به عالمون، صوت نقد وانكار على هذا الكتاب، وفيه ولا شك مما لا يرضاه هؤلاء الشيء الكثير. ألا يكون هذا دليلا على اشتغال القوم بالدنيا عن كل شيء حتى عن العقيدة وحتى عن انكار ما ينكرون؟

أسأل الله أن يصلح حال المسلمين، وأن يبعدهم عن مواضع الفتن والفتون، وأن يجعلهم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه

عبد الله على النجدى القصيمى

فهرس

الإهداء

الى الذين يبتغون الحق لوجه الحق وحده

طبق الأصل من كتاب

« حياة محمد »

المؤلف

محمد عليه السلام

ولد يتيما فى عصر اتفقت كلمة المؤرخين والرواة على أنه من أخبث العصور وأكثرها انحطاطاً من جميع النواحى الخلقية والعقلية والدينية والحكومية . عصر هو فى الحق عصر الظلم والظلمات . ولد فى أمة تائهة فى الضلال والجهل ، تائهة فى البغى والظلم ، تائهة فى الشرك والكفر ، تائهة فى الفرقة والاستبداد ، تائهة فى القساوة والعنف ، تائهة فى كل معانى الغضب والسخط .

أمة لا تدين لزعيم بزعامة ولا لحاكم بحكومة . كل رجل منها يحسب الزعيم من فى بردته ، والسيد من تحت خيمته .

أمة ليس لها قائد يقودها فى مواطن القيادة ، وليس لها دستور يجمعها

ولد هذا اليتيم فى أمة بلغت وحشيتها وقسوتها أن تحفر لفلذات أكبادها فتدفنهم فى الأرض أحياء أطهاراً صغاراً لا لذنب ولا لسبب غير خوف تلك الوحوش أن يصيبوا مما يطعمون أو مما يشربون وغير توهم تلك الوحوش أن يجلبوا لهم العيلة والعار .

أمة بلغت جهالتها وغباوتها أن تعبد ما تصنع بأيديها من أحجار وأصنام وغير ذلك ، ثم إذا جاعت أكلت ما كانت تعبد وما كانت تخضع له وتسجد .

نشأ هذا اليتيم فى أمة هذا بعض شأنها . نشأ وديعاً هادئاً أميناً تقياً طاهراً بعيداً عن كل هذه الشرور والآثام ، بعيداً عن كل هذه الأمراض الاجتماعية والخلقية ، بعيداً عن ذلك كله حتى لم يستطع التاريخ الحفيظ

ان يحفظ له غلطة او كذبة أو جريمة، وذلك كله عند قومه، حتى ضرب به المثل فى الطيب والصلاح والاستقامة، وحتى سماه قومه بحق (الأمين)

نشأ هـذا اليتيم وشب وصار رجلاً وبلغ أربعين سنة. بلغ هذا العمر كله وهو كما ذكرنا نقاء وطهارة وطيباً وأمانة. أنفق هذا العمر كله أمياً لم يقرأ كتاباً ولم يدخل مدرسة أو يتلق من معلم ولم يخط بقلم أو يقل بيت شعر أو يؤلف خطبة أو رسالة، بل ولم يشارك قومه فى شىء من أشعارهم وتفاخرهم بها ولم يحاول يوماً أن يكون خطيباً أو بليغاً أو غير ذلك من أصناف القائلين

أنفق هذا العمر كله خالياً من كل شىء إلاَّ من الطيب والاستقامة والرحمة. خالياً من كل شىء إلاَّ من الخلق المرضى ومن الوداعة والهدوء. أنفق هذا العمر كله كما ذكرنا وفوق ما ذكرنا.

ثم فجأة وعلى غير رقبة قام فى قومه الذين لم يعرفوه إلا صدوقاً أميناً، فى قومه الذين لم يعهدوه إلا باراً نصوحاً تقياً، فى قومه الذين لم يجدوه قوالا ولا خطيباً، ولا شاعراً ولا مفاخراً، فى قومه الذين لم يحفظوا له فى عمره كله غلطة من الغلطات، فى قومه الذين لم يروا منه حرصاً أو طمعاً فى رئاسة أو دنيا، فى قومه الذين يعرفونه كما يعرفون أنفسهم حيياً خجولا، خائفاً للعواقب، فى قومه الذين يعرفونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا يقرض شعراً أو يخطب

ثم فجأة وعلى غير رقبـة قام فى قومه هؤلاء صائحاً فيهم منادياً فى نواديهم: أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا، أيهـا الناس إن الله اراد رحمتكم وأراد إصلاحكم، إن الله أراد أن ينقذكم مما أنتم فيه من

وثنية وشرك، إن الله أراد أن يطهركم من هذا البلاء تطهيراً، إن الله أراد بكم كل خير وكل سعادة فأرسلنى إليكم فأطيعونى تسعدوا، أطيعونى تملكوا الدنيا، تملكوا من ملكوكم، تملكوا أولئك الذين طالما اتخذوكم لهم عبيداً وخولا، والذين طالما أذلوكم، وطالما سقوكم الذل أنواعاً.

ثم فجأة وعلى غير رقبة قام صائحاً فى قومه: أيها الناس إن الله أنزل على كتاباً به نبأ الأولين والآخرين، به ما كان وما سيكون، به أخبار الأنبياء والمرسلين، كتاباً جمع من الحقائق والتواريخ الصائبة الصحيحة ما لا يعلمه علماء الأرض الذين ردت إليهم زعامة الديانات، وزعامة التواريخ، والذين قضوا أعمارهم بين أحشاء الكتب فى أرقى أمم الأرض حضارة وعمراناً. كتاباً يصحح لأهل الأرض جميعاً أغلاطهم وأخطاءهم ويحكم بينهم فيما هم فيـه يختلفون. كتاباً به من القوانين والدساتير والشرائع ما يبقى على الأيام وما يرضى كل زمان ومكان. كتاباً به من العلوم، علوم الأرض والسماء، علوم الماء والهواء، ما لا تستطيع الأيام على مرورها وكرورها أن تبطل عليه نظرية واحدة، أو تنقض عليه حقيقة واحدة. كتاباً به من قوانين الأخلاق وقواعد علم النفس ما لا يعلمه أحد من أهل الأرض، وما لا تزيده الأبحاث والتجارب إلا قوة وثبوتاً. كتاباً أتحدى به الناس جميعاً، أتحدى به النوع البشرى كله، أتحداهم على أن يجاروا ألفاظه أو معانيه، أو يبطلوا عليه نبأ من أنبائه عن الغيب، أو عن العلوم، أو عن التواريخ، أو عن أصل الخليقة أو عن الكتب التى بين أيديهم، أو عن الله، أو عن ملائكته، أو عن الآخرة وما فيها من سعادة وشقاء، أو عن كل شىء. أتحدى الناس

جميعاً على أن يأتوا بمثله أو بما يقاربه ، أو بما يبطله ، وأنا أمهلهم سنة وسنين ومئات السنين ، ولهم أن يستعينوا بمن شاءوا من الأنصار والجنود . كتاباً يقول لابد من أن يكون كذا فيكون كما قال وكما حدث . كتاباً يقول لابد من أن يكون له الغلب ولمن عمل به أخيراً فيكون كما قال وكما حدث . كتاباً لن تستطيعوا أنتم وأهل الأرض جميعاً على أن تفنوه أو تمحوه من الوجود ، بل ولا أن تمحوا حرفاً منه ولو انفقتم كل قواكم وجهودكم لذلك ، وليس له من نصير وحام غير الله الذى أنزله . كتاباً خالداً فى الناس ما خلد الليل والنهار ، باقياً فى الناس مابقى فى الأرض حق وباطل ، وما بقى خير وشر

نعم . ثم فجأة وعلى غير رقبة قام فى قومه بهذا الصوت الداوى ، بهذا الصوت المفاجىء الغريب عن تلك الأصوات التى ألفوها ، بهذه الدعوة الغريبة عن تلك الدعوات التى عرفوها .

فماذا كان ؟

فماذا كان من قومه إزاء هذه الدعوة وإزاء هذا الداعى ؟ ما كان منهم إلا التكذيب لما جاء به جملة والانكار جملة . وما كان منهم إلا الجحود لما جاءهم به من حق ومن هدى . جبهوه بالكفر والعناد . جبهوه بالمساءة والإيذاء . أنكر ما جاءهم به كبيرهم وصغيرهم ، أحرارهم وعبيدهم ، قريبهم وبعيدهم . رموه كلهم عن قوس واحدة وبقوس واحدة . كذبوه بعد أن كان عندهم الصادق الصدوق ، خونوه بعد أن كان الأمين المأمون ، ذموه وقد كان عندهم المحمود الممدوح . أجمعوا كلهم على

حربه ومناوأته وهو وحيد مفرد . وحيد إلا من الحق وإلا من عناية الحق . هجموا عليه بأسلحتهم المنوعة وهو أعزل إلا من كتاب ربه وإلا من دين ربه . قامت أمة بأسرها مشهود لها بالعناد وشدة الشكيمة وبالقساوة التى لا تعرف ليناً . قامت هذه الأمة بأسرها فى وجه هذا الوحيد المفرد الأعزل من كل سلاح قاتل مميت . قاموا فى وجهه ووجه دعوته . حاربوه بالسنان واللسان ، بالقوة والبيان . قالوا إنه ساحر ، وقالوا كذاب ، وقالوا مجنون ، وقالوا ضال ، وقالوا دجال زائغ ، وقالوا فيه كل ذم وقدح فى كل قالب من قوالب بيانهم وبلاغتهم

فماذا كان ؟

فماذا كان منه أمام هذا البلاء ؟ ! كان منه أنه لم يضعف أمام شىء من ذلك ، ولم يهن لشىء من ذلك ، بل ولا فكر فى أن يهون أو يضعف أمام هذا الأذى الذى لا يصبر عليه إلا مثله من عباد الله . بل كان يزداد إيماناً بدينه وثباتاً على دعوته ومبدئه كلما ازدادوا فى أذاته وفى التجنى عليه فى سبيل إيمانهم بباطلهم . وكان يزداد بهم رحمة وشفقة كلما ازدادوا به قسوة وغلظة . وكان يبكى عليهم كلما ضحكوا سخرية منه وتنادراً به . وكان يشتد فى سبيل إحيائهم كلما اشتدوا فى سبيل إهلاكه ، ويسعى لحياتهم كلما سعوا لمماته . وكان يتمنى صلاحهم كلما تمنوا فساده .

كانوا يضربونه ويسيلون منه الدماء فيقول اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون . . .

وكان إذا أسرفوا فى عذابه وإرهاقه وأرسل الله إليه ملكا يقول له :

أتحب أن نهلك قومك عامة ، يكون جوابه : « لا . إنى لأرجو أن يخلق الله من أصلابهم من يعبدون الله لا يشركون به شيئاً » وكان إذا لجوا فى الضلال والاعتداء فأصابهم الله بعذاب كقحط أو نحوه انتقاماً لرسوله جاءوه يطلبون منه الشفاعة لهم عند ربه الذى غضب له . فما يكون منه إلا أن يرفع يديه إلى السماء يدعو الله لهم ويخلص فى الدعاء

هكذا كانت حال رسول الله ، وهكذا كانت حال قومه : يمطرونه عذاباً ، ويمطرهم رحمة . يريدون به شراً ويريد بهم خيراً . وهكذا كان يضرب للإنسانية أروع الأمثال فى التسامح والعفو ، فى الثبات على العقيدة والمبدإ الحق ، فى مناهضة الباطل والضلال ، ثابتاً أمام هذا البلاء المستطير العنيف ، لا أقول ثبوت الجبال أمام الرياح الزعازع ، ولكن أقول ثبوت الإيمان القوى أمام الكفر . فلا أثبت من الإيمان القوى ولا أقوى منه على منازعة الشر والاضطهاد . . . يدعو إلى الله فى وسط هذه الموجات الهوج . يدعو إلى الله هؤلاء القوم العتاة البغاة الأعوام تلو الأعوام فلا ييئس ولا يقنط على رغم ما يلقى من المؤيسات المقنطات . يبدى من ضروب التضحية والمثابرة ما لا يوجد عند الأيام والليالى .

هكذا كان والله يمده بأنواع الآيات ، ويعزز دعوته بضروب الدلائل والمعجزات . يبدى له كل يوم ما يكفى من جانب الهوى دليلا على صدقه وصحة دعواه ، دليلا على أنه عبد الله ورسوله بعثه بالرسالة العامة والشريعة الخاتمة . حتى الطبيعة ! ! ! . . الطبيعة نفسها لم تعتصم من أن تسخر لمحمد ولتعزيز دعوة محمد ولبيان فضل محمد . وما تكون

الطبيعة الصماء الخرساء فى جانب « محمد » . محمد الذى فتح الله به الآذان الصم والعيون العمى . أو ليس وجود محمد نفسه قضاء على ناموس الطبيعة . فليس من الطبيعة أن يخرج من جزيرة العرب ، تلك الجزيرة الجدباء المحرقة ، أمى يقلب نظام العالم كله . . . حتى الطبيعة نفسها لم تستطع أن تعصم نفسها من أن تتصرف لفائدة محمد ودعوة دين محمد ، حتى شق له القمر وأجرى له الماء من بين أصابعه وأنطقت له الجمادات والحيوانات إلى غير ذلك من المعجزات .

كل ذلك إعذار من الله إلى أولئك الأقوام ، وكل ذلك إقامة للحجة عليهم ، وكل ذلك لئلا يقول فريق يوم القيامة ، يوم إلقاء المعاذير والحجج : يا ربنا ما جاءنا هذا النبى بدليل مادى على نبوته وعلى اختصاصك إياه بالرسالة . ونحن لا نعقل من الدلائل إلا المادى الحسى . وأما الدلائل العقلية فهى لغيرنا ، لمن ميزتهم يا ربنا علينا بالعقول الراجحة الثاقبة

وكل ذلك ، وأولئك الأقوام الكفار بمحمد فى حيرة مما يرون ، فى حرب مع أنفسهم من مسألة محمد ونبوة محمد . وكل ذلك ، والشك والكفر ينصهران فى صدور القوم شيئاً فشيئاً . وكل ذلك ، والباطل ينزاح من رؤوسهم اليوم بعد اليوم . وكل ذلك ، وجلد محمد يذيب شركهم وعنادهم الساعة بعد الساعة واللحظة بعد اللحظة . وكل ذلك ، وإشراق شمس محمد يبدد ليل ضلالهم حيناً فحيناً . وكل ذلك ، والحق يعلو والباطل يسفل ويهوى

ثم ماذا ؟

ثم ما انقضى بضع وعشرون عاماً حتى أصبح هذا اليتيم صاحب الكلمة النافذة فى أولئك الذين أذاقوه العذاب أنواعاً ، وحتى أصبح السيد المطلق فى تلك الجزيرة الواسعة العنيدة ، وحتى أصبح أعظم ملوك الأرض تخشاه وتنقطع مرائرها خوفاً منه ، وحتى أصبحت كلها تمد له يد المسالمة رغبة ورهبة ، وحتى نفذ ما كان يرجو تنفيذ بعضه ، وحتى حقق كلما أراد تحقيقه وكلما جاهد فى سبيله ، وحتى قضى على كل رأى لا يرضاه أو لا يرضاه الله ، وحتى أصبح من كانوا يسعون لقتله يقتلون أنفسهم لإحيائه ، وحتى أصبح هؤلاء الأعداء الألداء كل منهم يرى السعادة التى لا تفوقها سعادة أن يظفر بنظرة منه ، وحتى وضع شريعة باقية على الدهر ، وأنشأ أمة معدة لتحطيم أعظم أمم الأرض ، وحتى ألف من شذاذ العرب والأعراب الذين ما كان التاريخ يعبأ بهم أو يعبأ بلادهم لصغارهم وهوانهم . ألف أولئك الأبطال فى كل معانى البطولة ، أولئك الأبطال الذين تزهى بهم صفحات تاريخ الإنسانية ، وحتى أخرج من أولئك الأعراب الحفاة الجفاة معلمين لروما وأثينا ، مؤدبين لحكماء بيزنطة وفارس والهند ، وحتى فجر صخور تلك الصحراء الجرداء ينابيع عذاباً ، وحتى أعاد تلك الصخور والرمال عيوناً تجرى بماء الحكمة والفلسفة والعلم والعدالة ، وحتى جعل تلك البقعة الجرداء المحرقة متجه أنظار العالم ، وحتى غير مجرى التاريخ العالمى وقلب نظامه بسرعة لم يعهد لها نظير وبقوة لم يكن لها مثيل

فماذا عمل ؟

ثم ماذا عمل ؟ ؟ وإلى أى وجه ذهب بعد هذا الفوز وبعد هذا الفتح المبين وبعد هذا النصر التام ؟ ! الجواب : أنه ظل كما بدأ مجاهداً صابراً على جهاده متواضعاً جم التواضع زاهداً جم الزهد سهلا لطيفاً كما كان وكما خلق ، لم يغير ما ناله من سلطان وقوة وجاه من أخلاقه شيئاً ، لم يكسبه ذلك إلا الحمد لله ومواصلة عبادته وكثرة تواضعه لمن آمن . والنفس العظيمة عظيمة أبداً ، عظيمة فى الرخاء كما هى عظيمة فى الشدة ، عظيمة فى القوة كما هى عظيمة فى الضعف . والذهب هو الذهب وإن كان فى يد الصائغ مذاباً

فما حفظ عليه أنه انتقم لنفسه ممن أذاقوه البلاء أشكالاً ، وممن أجلبوا عليه بكل أنواع الشر والنقمة ، ولا حفظ عليه أنه آثر نفسه على من آمن به بشىء من الأثرة ، ولا أنه رغب بنفسه عن أنفسهم ، ولا أنه استباح لذاته ما حرم عليهم ، ولا أنه ركن إلى الدنيا بعض الركون أو حاول جمعها ، وكان على ذلك قادراً . بل لقد كان يزداد بعداً عن الدنيا والمال كلما ازدادت الدنيا والمال إليه قرباً . حتى لقد خرج منها كما دخلها لم يدع ديناراً ولا درهماً ، وحتى خرج منها وسلاحه مرهون لليهود على طعام أهله الضرورى .

أعطاه الله تلك الدنيا بعد الجهاد الحاد والبلاء الحاد . فما أعطى تلك الدنيا من نفسه شيئاً . وقد باعها كلها للحق . والنفس الكبيرة

أعظم من أن تكون ثمناً لدنيا أو لرئاسة . وما خلقت الدنيا إلا لتكون من خدمها

ظل يرى الناس مالم يسمعوا به من أمثال الزهد والورع والتضحية والشجاعة والإيثار والمساواة والعدالة ما جعلهم يترامون على طاعته والدخول فى دينه وعلى التفانى فى حبه ترامياً ، وما جعل الأعرابى العنيد الأبى يقف أمامه قائلا بشيء من الزهو والفخر والسرور : يا محمد والله لو أحببت أن أقطع رأس والدى لقطعته ولوضعته بين يديك . ظل يرى الناس - والدنيا فى يمينه وشماله - من أمثال الرجولة الكاملة والنبوة الخاتمة ما جعل أولئك العرب يطلبون الموت تحت راية الحق طلب الناس الحياة تحت راية الباطل ، وما جعلهم يحرصون على الفقر حرص الناس على الغنى ، وما جعلهم يتبارون فى الإيثار تبارى الناس فى الأثرة

ظل يضرب لهم هذه الأمثال حتى خرج من الدنيا والدنيا لا تعرف غير محمد وأمثال محمد ، وحتى خرج من الدنيا والناس لا يعرفون غير محمد وغير فضل محمد ، وحتى ظل العربى الذى يحب الحياة يعانق الموت الزؤام باسم الثغر راضى النفس يحفزه ما يتصور فى مخيلته من جهاد محمد وشجاعة محمد ، وحتى ظل العربى يدخل على أعظم ملوك الأرض جبروتاً وسلطاناً وفتكا غير حاسب إلا أنه رجل من سائر خلق الله ، وذلك لما بقى فى رأسه من أمثال محمد فى عزة النفس وفى إباء الضيم وفى تعظيم الله وحده ، وحتى ظلت الفئة القليلة من المؤمنين تناجز الجموع المعدودة بمئات الألوف غير حاسبة إلا أنها فى قبضتها

وغير حاسبة إلا أنها آخذة بناصيتها ، وذلك لأن محمداً ضرب لها المثل الأعلى فى الاعتداد بالنفس اعتماداً على الله فقاوم أهل الأرض كافة ، وهو موقن بالنصر ، موقن بأن العاقبة له فكان له ما أيقن وكان له ما قدر ، وحتى كان الأعرابى الفظ يسمع الآية الزاجرة فيصعق فرقاً من النار ويسمع الآية فى الرحمة فيطير لبه شوقاً إلى الجنة

خرج من الدنيا مخلفاً وراءه أولئك الجنود ، أولئك الملائكة فى صور الناس . لا أقول الملائكة . فليس هنالك أفضل من أن أقول : مخلفاً أولئك الصحابة . فما فى الألفاظ لفظ يتحمل من معانى العظمة والبطولة مثل ما يتحمله لفظ الصحابة ، وليس هنالك فى الألفاظ لفظ يشرف على لفظ الصحابة بعد الله ورسله . خلف وراءه أولئك الصحابة الأبرار بعد أن هذبهم بمدرسة السماء ، بمدرسة النبوة الخاتمة . مدرسة مادتها كلام الله ومدرسها ورئيسها محمد عبد الله ورسوله .

فأية رسالة ادوها ؟

فماذا عملوا بعده وأية رسالة أدوها فى الأرض ؟! الجواب : أنهم أغاروا على أطراف الأرض يحطمون أوثانها وأصنامها ، يحطمون طواغيتها وأربابها ، يحطمون ما يحجل به الناس فى ذلك العصر الموبوء من بلاء وعسف ، من هوان ووثنية ، من خرافات حطت الانسانية عن مستوى البهائم قروناً وقروناً . أغاروا على هذا البلاء وقد علمهم عبد الله ورسوله كيف يغيرون وكيف يغزون . أغاروا على ذلك . بماذا أغاروا ؟ ! لا أقول بالطيارات ولا الدبابات ولا الغواصات ولا الرشاشات

ولا الغازات الخانقة ولا بغير ذلك من أنواع السلاح القاتل . لا أقول بشيء من ذلك ، ولكنى أقول إنهم أغاروا بقلوب ! ! بقلوب مخلصة مؤمنة وكفى ! ! وبدعوة تحل القلوب قبل أن تحل الأسماع . فليس فى أنواع السلاح وعدد الجهاد أمضى من القلوب المخلصة المؤمنة ، وما فى الأرض أسرع احتلالاً للبلاد واستعماراً لها من الدعوة الصالحة المعقولة إذا ما قام بها رجال مخلصون عاقلون . أغاروا على هذا البلاء بهذه القلوب المخلصة المؤمنة تحمل هذه الدعوة المعقولة الصالحة ! !

وأى مخلوق رزق شيئاً من العقل والانصاف لا يلبى تلك الدعوة ولا يجيب لذلك الدعاء ؟ ؟ !

أجابت كل البلاد التى وصلوها ووصلتها دعوتهم . وما أجابت الدعوة وحسب ، بل إنها نسيت جميع مقوماتها مندمجة بدعوة أولئك الصحابة ، مندمجة فى مقوماتهم . تركت أديانها وأزياءها ولغاتها وعاداتها آخذة بدل ذلك دين الصحابة ومقومات الصحابة

فماذا كان ؟

كان أن أنقذوا الإنسانية المعذبة ، أنقذوا الأخلاق ، أنقذوا العقول ، أنقذوا الديانات ، أنقذوا الرؤساء والمرءوسين ، أنقذوا البهائم ، أنقذوا كل ذى روح ، أنقذوا أولئك كلهم من ذلك البلاء ، البلاء الذى فرضته عليهم أنانية الرؤساء الطاغين ، وفرضه رجال الكهنوت والجهل والحماقات . أنقذوهم من ذلك كله ، ثم أذاقوهم طعم الحرية . أروهم كيف تكون الديمقراطية ، كيف تكون العدالة . عرفوهم منزلة

المخلوق من منزلة الخالق . عرفوهم حق الله وحق عباده . أروهم ذلك كله بأكمل صوره ، وقد كان عندهم مجهولاً ، وقد كانوا لا يعرفون منه شيئاً . وما زال الناس من ذلك اليوم إلى يومنا هذا يستضيئون بنور هؤلاء الصحابة ، وما زالوا يقبسون من تلك المشاعل العربية المحمدية . وكل حضارة ومدنية توجد اليوم هى فى الواقع متولدة من تلك المدنية العربية بواسطة أو بواسطات عديدة . وسوف يظل الناس إلى يوم البعث يجنون من تلك الدعوة كل على قدر استعداده .

هذه هى حياة محمد ، وهذا هو محمد عليه السلام مصوراً بقدر استعدادنا نحن لا بقدره هو . فما ترى فى هذه الحياة من المعجزات والسمو ؟ ! وما ترى فى هذا اليتيم العربى الأمى من المعجزات والسمو ؟ ! حياة كلها معجزات وسمو . حياة سلسلة من العظمة والبطولة ، بطولة النبوة لا بطولة الرجولة فقط ! ! حياة لا يستطيع أحد أن ينكر عظمتها . المؤمن بنبوتها يعظم فيها النبوة والعظمة ، والكافر بنبوتها يعظم فيها البطولة والرجولة التامة . فالناس لا يختلفون فى تعظيم هذه الحياة ، والناس لا ينكر منهم أحد ما عليه لهذه الحياة من فضل ومن منة . إذن ليكتب الكاتبون فى عظمة هذه الحياة . كل يكتب على قدر استعداده وعقيدته ، وعلى قدر إيمانه . وليكتب « الدكتور هيكل » إذن فى هذه الحياة ، ولنكتب نحن بعض أغلاط هيكل ولننكر ما يدخل فى هذه الحياة من غلط فإن الغلط فى فهم العظيم هو فى الواقع غلط فى العظمة

الدكتور هيكل

الدكتور حسين هيكل واسع الثقافة ، كثير القراء مسموع الكلمة ، فاذا ما كتب كانت فائدته عظيمة ، وكان نفعه عاماً . ومن هذا فسوف تكون الفائدة فى كتاب حياة محمد عظيمة وسوف يكون نفعه عاماً ولقد صادف رواجاً حسناً ، وصادف مدحاً لا بأس به . وقد التهمه العالم الاسلامى التهاماً ، واعتنى به أفضل عناية ، وقرظه جميل التقريظ . وإن يكن هذا دالا على شىء فانه يدل على ما للدين وللكتابة فى الدين من المكانة فى النفوس وعلى تعلقها به تعلقاً يحمل المتشائم على التفاؤل والرضا ، كما يدل على مكانة الدكتور هيكل فى نفوس العالم العربى

وكم يفرح المؤمنون برواج كتب الدين ، وكم يعجبهم انتشارها وكثرة قرائها ، فان فى ذلك من القضاء على الالحاد والتنفير عنه مافيه ، كما أن فيه ترغيباً وحفزاً لكتابنا الاعلام العصريين أن يواصلوا الكتابة فى الدين وفى الدفاع عنه وأن يرغبوا فى ذلك لهذا اغتبطنا برواج كتاب حياة محمد اغتباطاً كثيراً .

وقد وفقت لقراءة فصول الكتاب فوجدت الحسنات التى اشتمل عليها غنية عن أن نشيد بها ، وقد أشاد بها المشيدون قبلنا ، وقد أشاد بها أصدقاء الدكتور . وإنما ألفيت بعض مآخذ زل فيها القلم فكان التنبيه عليها واجباً كى يبرأ منها الكتاب فى الطبعات الآتية اذا ما اقتنع الدكتور بها .

لم يقدح المسلمون فى عيسى

قال فى ص ٣ : « واستعر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قروناً وقروناً متتالية ، ولم يقف القتال عند حرب الأسنة والمدافع بل انتقل كذلك إلى ميادين الجدل والنضال الكلامى ، جاء المتقاتلون فيها بأسماء عيسى ومحمد ، وجعل كل فريق من انتقاص رسول الفريق الآخر وسيلة لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصبها »

ونحن لا نعلم أن المسلمين قد انتقصوا عيسى عليه السلام ولا قدحوا فيه ، بل يرى المسلمون أن انتقاص عيسى أو غيره من أنبياء الله كفر بواح ومفارقة لملة الإسلام ، بل المسلمون يعلمون كافة أن القرآن الكريم قد طهر عيسى وطهر كل رسول من كل رجس وعيب أضافه اليه أهل الضلالة . والآيات القرآنية فى الثناء عليه ونفى كل تهمة عنه عديدة ليس المقام فى حاجة إلى سردها . على أن العجيب أن الدكتور قد ذكر هذا المعنى بعد أن ذكر ما نقلته لك . فلا ندرى ماذا يريد بانتقاص المسلمين عيسى كما لا ندرى متى ألبوا السواد على أصحاب عيسى بالقدح فى عيسى .

والمسلمون ، وإن اختلفوا فى مسائل من أمهات الدين ، فقد اتفقوا جميعاً على وجوب تعظيم الأنبياء وتبرئتهم من كل ما يشين وما يصم . فلا نستطيع إذن أن نفهم أن المسلمين قد انتقصوا عيسى أبداً

اساس الديانات السماوية كلها التوحيد

وقال فى ص ٦ : « فالنصرانية تقول بالتثليث والاسلام ينكر ما سوى التوحيد أشد انكار » .

وقال فى ص ٨ : « تقول المسيحية بالتثليث وبأن عيسى ابن والاسلام ينكر انكاراً صريحا باتا أن يكون لله ولد »

ونحن نخالف الدكتور ونقول : إن الاسلام والنصرانية لم يختـ على أساس العقائد ولا فى ان عيسى عبد الله ورسوله وأن الله فرد ص لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولا جاءت النصرانية بالتثليـ ولا قالت إن عيسى ابن الله جل الله عن ذلك . وإنما قال ذلك النصار أو من يدعون أنهم نصارى ، وفرق بين النصرانية وبين من يدعو اعتناق النصرانية ، كما أن هنالك فرقاً عظيما بين الاسلام وبين من يدعو الاسلام أو من يحسبون على الاسلام أو من يقولون إنهم مسلمو والأديان السماوية لم تختلف مطلقاً فى وحدة الله وفى أنه ليس له شريـ ولا ند ولا ولد . فلا النصرانية ولا غيرها قالت ما ذكره الدكتور جوزته

وليس للدكتور أن يقول أو يقول من يدافع عن الدكتور : إ أعنى بالنصرانية النصارى . كما أنه ليس لأحد أن يقول : إن الاسلام د خمول وكسل وهوان وضعف وذلة وتفرق وإن كان ذلك كله وأكـ منه قد جاء من أهله ومعتنقيه . فلن نؤاخذ النصرانية بما عمل من يدعو

اتباعها ، كما لا يؤاخذ الاسلام بما جناه أهله عليه وعلى انفسهم من شر وبلاء . وليس بجائز أن يسب الدين بما اقترفه من يعزون اليه ومن يعدون عليه .

مذهب وحدة الوجود والاسراء

وقال فى ص ١٥٨ : « ففى الاسراء والمعراج فى حياة محمد الروحية معنى سام غاية السمو . معنى أكبر من هذا الذى يصورون والذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمين حظ غير قليل . فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه فى ساعة الاسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة كمالها

« لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا المحسة والمدبرة والعاقلة

« تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله فى روحه فوعاه منذ أزله الى أبده وصوره فى تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق فى مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة

« وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الانسانية . فإذا جاء بعد ذلك من اتبعوا محمداً من عجز عن متابعته فى سمو فكرته وقوة إحاطته بوحدة الكون فى كماله وفى جهاده لبلوغ هذا الكمال فلا عجب فى ذلك ولا عيب فيه

« والممتازون من الناس والموهوبون منهم درجات . وبلوغنا الحقيقة معرض دائماً لهذه الحدود التى تعجز قوانا عن تخطيها »

ولعلنا لا نظلم حقاً ولا نركب باطلا إذا قلنا إن هذا الغلو والاطراء فى صفة الرسول صلى الله عليه وسلم مما يأباه الاسلام ومما تأباه بساطة الدين وروح الدين الساذجة البريئة ، بل مما يأباه القرآن الكريم أشد الاباء ويراه من الإسراف الذى يرفع المخلوق فوق مستواه ويأباه الرسول لنفسه كما أن الواقع يأباه ولا يمكن أن يرضاه .

وقد وصف القرآن محمداً عليه الصلاة والسلام أجمل وصف وأبعده من نقص وغلو، وصفاً يرفعه عن مقام سائر الناس ولا يرفعه إلى مقام الألوهية الأعلى، فقال (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم)

وقد كان عليه السلام كثير الخوف على أمته من أن تغلو فيه وأن ترفعه فوق مستوى البشرية . ودكتورنا يقرر هذا فى مواضع من كتابه .

وكان عليه السلام : « يقول لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » . بل لقد أغضبوه يوماً إذ قالوا له : أنت سيدنا وابن سيدنا وقال لهم : « أيها الناس . لا يغوينكم الشيطان فما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله »

وليس بخاف على الدكتور أن الغلو فى الأنبياء والأولياء والملائكة

هو أساس الوثنيات القديمة والحديثة ، وهو جرثومة الإشراك الذى وصم جبين الانسانية وصمة عار وسبة لن يمحوها ماجاء به الانسان على مر الدهور من أمور تدل على عقل وذكاء ومعرفة . فلا ندرى من أين للدكتور أن روح محمد قد اجتمعت فيها وحدة الوجود كله ، كما لا ندرى معنى ذلك ولا معنى وحدة الوجود ، ولا ان للوجود وحدة

ولا أحسب دكتورنا الفاضل ينحى بكلامه وعباراته منحى القدامى من صوفية المسلمين وباطنيتهم الذين يطلقون أمثال هذه الكلمات اطلاقاً ويرسلونها ارسالا أحفظ عليهم صدور المحافظين من علماء الأمة . وهل يمكن أن نفهم أو هل يمكن أن يفهم صاحب « حياة محمد » أن للخالق والمخلوق وحدة أو أن الخالق والمخلوق واحد . لأن ذلك هو الوجود الذى يمكن أن يتناوله كلام الدكتور ، أو هل يمكن أن نفهم أن محمد وغيره من مشركى الناس ومؤمنيهم وحدة فى الوجود والمصدوق .

لا يعلم الغيب الا الله

على أن الذى لا نستطيع له اقراراً ولا قبولا قوله :

« تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله فى روحه فوعاه منذ أزله إلى أبده وصوره فى تطور وحدته إلى الكمال »

والذى نستطيع أن نقوله وأن نقابل به كاتبنا ، هو أن محمدا عليه السلام ما كان ولا كان غيره من خلق الله واعياً للكون كله ولا عالما بالغيب من الأزل إلى الأبد ، ولا اجتمع كل الكون ولا نصفه بل

ولا عشره فى روح محمد ونفسه . والآيات القرآنية المصرحة باختصاص الحق سبحانه بعلم الغيب معروفة لكاتبنا ولقرائنا وليست فى حاجة إلى اثباتنا

وحسبنا أن نثبت هنا آيتين اثنتين : قوله (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير)

على أن قولته هذه ينافيها قوله فى ص ٤٨٩ « فحياة محمد انسانية بحتة بلغت أسمى ما يستطيع الانسان أن يبلغه ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى اليه حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك . ذلك بأنه يريد ألا يعبد أحد إلا الله وأن يقف المسلمون من أمر الرسول عند محبته وإجلاله والصلاة والسلام عليه الخ . . »

أليس هذا الموقف مما يدعونا إلى العجب وإلى مساءلة الدكتور زيادة البيان . والحق أن الدكتور كان محباً لرسول الله مغالياً فى حبه ، حين كتب القطعة الأولى ، وأنه كان محباً للتوحيد غالياً فى حبه ، خائفاً على التوحيد غالياً فى خوفه ، حين كتب القطعة الأخيرة . والحب إن لم يقيد بقيد البرهان والعقل ، كان جموحاً بصاحبه ، وكان عنيفاً ، بل كان ضاراً

وهذا الوصف الذى وهبه للرسول من تلاشى الوجود ، وتبدد حجب الزمان والمكان من أمامه ، واجتماع الكائنات فى روحه ، يناقض ما يرتئيه الدكتور من نفى الخوارق والمعجزت المادية غير

القرآن ، كما سوف أطلعك على ذلك بحول الذى لا يعلم الغيب غيره

ويا ليت شعرى كيف اتفقت هذه المقالة لكاتبنا ، وهل اتفقت له من العقل أو من النقل ، ولا ندرى أن واحداً منهما يقبلها أو يجيزها .

هل ينكر الدكتور الاسراء والمعراج ؟

والذى نخشاه أن يكون هذا القول قد تضمن نفى الاسراء والمعراج . فانه إذا كان للكون وحدة أو اذا كان الكون كله واحداً مجتمعاً فى روح محمد صلى الله عليه وسلم وفى صدره كما يريد كاتبنا لم يكن هناك حاجة الى أن يسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، أو يعرج به من الأرض الى السموات العلى ، بل لم يكن ذلك مستطاعاً ولا معقولا ، لأن المسجد الحرام والمسجد الأقصى كلاهما فى روح محمد وكلاهما شىء واحد ، ولأن السماء والأرض شىء واحد وكلاهما فى روح محمد .

فهل يمكن أن يعرج به أو يسرى به إلى شى هو فى روحه ومعه ؟ !

وهل لدى الدكتور من حل لهذا ؟ !

وأنا لا أرى الاسراء والمعراج فى حاجة إلى كل هذه الفلسفة ، والى كل هذا الامعان فى البحث للوصول الى الايمان بهما ، والحصول على مغزاهما . فالله على كل شىء قدير ، يفعل ما يشاء ، ولا مانع لما أراد باعتراف كاتبنا واعتراف كل من يؤمن بالله .

ونحن نرى كل يوم فى حادثات الأرض والسماء ، ما هو أغرب من الاسراء والمعراج وأدل على القدرة

ولقد كادت علوم هـذا العصر تمحو حروف « مستحيل » من قائمة الموجودات ! !

معجزات محمد المادية ومنطق الدكتور

وقال ص ٤٨٩ « ولقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى اليه حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك . ذلك بأنه يريد أن لا يعبد أحد إلا الله وأن يقف المسلمون من أمر الرسول عند محبته وإجلاله والصلاة والسلام عليه . وذلك ما دعا أبا بكر ، حين خطب الناس إثر وفاة النبي والناس مختلفون : أمات أم لم يمت ، إلى ان يقول : « من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت

« وهذا الذى جرى عليه النبى وقام به أبو بكر يوم وفاته هو ما حال بين كثير من علماء المسلمين وكتابهم والوقوف عند ما أضيف إلى سيرة النبي من خوارق وضعها بعض الغلاة مضاهاة لما ورد فى القرآن عن عيسى وموسى أو دسها من دسوا الاسرائيليات على الاسلام ونبيه ليزيغوا بها العقائد وليبعثوا بها الشك إلى نفوس من يؤمنون بأن سنة الله لن تجد لها تبديلا . وما كان محمد بحاجة الى الخوارق لاثبات رسالته وقد كانت حياته قبل الرسالة كلها التضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به »

يصر الدكتور كل الاصرار على نفي المعجزات وتكذيبها إذا

ما استثنينا القرآن . يصر على ذلك اصراراً باتاً ، ويذكر على هذا النفى وعلى هذا الاصرار على النفى من الأسباب ما لا يستطيع الوقوف أمام البحث .

ولكن الواقع والدراسة الصحيحة يصران على خلاف ما أصر عليه الدكتور . يصران على اثبات المعجزات اصراراً باتاً صريحاً .

اقرأ فى أى كتاب تناول حياة محمد عليه السلام باسهاب أو باختزال وانظر ماذا يقص عليك بالأسانيد الثوابت الصحيحة من المعجزات التى خص الله بها رسوله وعزز بها دعوته . وانظر ماذا تجد من أنواع هذه المعجزات ، ثم اختبر هذه الطرق لهذه المعجزات وانظر هل تجد فيها طريقاً ضعيفاً أو هل تجد فيها راوياً كذاباً غاشاً للدين وللعلم وللحق يمكن أن يدس فى ذلك حسب هواه وما يميل اليه ؟! أو هل تجد راوياً إلا ثبتاً فيما يقول وما ينقل ؟ ! اقرأ فى البخارى وفى كتاب مسلم أصح كتب الرواية أو فى مسند الامام احمد أو فى أبى داود أو فى الترمذى أو فى أى كتاب حديث : اقرأ فى ذلك ثم امتحن ما قرأت وناقشه الامتحان، وحاسب ما قرأت وناقشه الحساب، وسلط عليه ما علمت من قوانين البحث والدراسة الصائبة وانظر بماذا تخرج وعلام تخرج .

بل اقرأ فى أى كتاب من كتب السيرة : ابن هشام أو الواقدى أو ابن جرير أو ابن كثير أو ما شئت

واقرأ فى أى كتاب تفسير للقرآن على أي وجه كان ذلك التفسير ، وعلى أى مذهب كان صاحبه .

بل اقرأ كتباً وضعت خاصة بما يصر الدكتور على نفيه . كتباً وضعت فى معجزات النبى العربى وسميت علامات النبوة ، وذلك ككتاب علامات النبوة للبيهقى وكتاب علامات النبوة لأبى نعيم وغيرهما .

اقرأ هذه الكتب كلها تجد الماء تارة ينبع من بين أصابعه عليه السلام لما أن جهده والمسلمين العطش وكانوا سفراً حتى كاد الموت يدركهم . وقد روى هذه المعجزة ممن حضروها من لا نستطيع الآن احصاءهم . ولا تكبرن هذه المعجزة على عقل دكتورنا أو عقول القراء ، فان الجو والهواء مملوءان بذرات الماء . وعلماء الكيمياء الآن يستطيعون أن يركبوا ماء من هذه الذرات باذن الله . بل تطورات الجو . تكوّن من هذه الذرات السحاب ، ثم تنزل مطراً برحمة من الله وفضل . فلن يعظم ذلك على قدرة الله غوثاً لرسوله وغوثاً لعباده المؤمنين من الموت المحقق .

وتارة تجد الطعام يزيد بين يديه عليه السلام بدعائه ورغبته الى الله . وقد صحت هذه المعجزة فى أصح كتب الحديث عن رجال كثيرين ممن أكلوا منها وشهدوها . ولا تتعاظمك أيها القارىء هذه المعجزة حتى تقع فى انكارها ، فان علماء الكيمياء الآن يستخلصون من الهواء والنبات ونحوه طعاماً عند الحاجة والضرورة الحاكمة

وتارة ترى المشركين يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم المعجزة ويلحون فى الطلب فيشق الله القمر حتى يرى فلقتين ويرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره الى الناس ويقول لهم : «اشهدوا»

وروايات انشقاق القمر رواها رجال الصحيح من طرق زعمها فريق من رجال الرواية متواترة . وقد حدث القرآن عنها بقوله : (اقتربت الساعة وانشق القمر)

إذن لن يستطيع الدكتور انكار ذلك أو القدح فى سنده بتجريح الرواة . وأحسب القارىء يجد على هذه الحادثة العظيمة إشكالات وشبهات قد تكون عقبة بينه وبين الايمان بذلك ، فلا بأس أن أحيله على كتاب مشكلات الأحاديث النبوية[1] ، فانك واجد هنالك ما يبدد عنك ما تجد من شبهات

ويحسن هنا أن نسائل الدكتور عن رأيه فى انشقاق القمر ، فان قبل انشقاقه معجزة للنبى العربى فقد أبطل قوله فى نفى المعجزات ، وان أبى الايمان بذلك قلنا له : كيف يجتمع هذا الاباء مع الايمان بالقرآن ومع الايمان بأنه من عند الله

وتارة ترى الاعرابى يجىء النبى فيقول له : ادع هذه الشجرة ، فان جاءتك آمنت لك وآمنت بأنك رسول الله . فيدعوها فاذا هى ماثلة أمامه ، ويأمرها بالرجوع فاذا هى قائمة مكانها . فاذا الاعرابى يؤمن ، واذا الاعرابى يزداد إيماناً ويقيناً

وتارة ترى الأعمى يجىء رسول الله فيطلب منه أن يدعو الله له فيدعو فيشفى ويصبح بصيراً باذن الله

وتارة ترى الذراع المسمومة تقدم له عليه السلام فيقربها الى فمه

---

(١) خرج هذا الكتاب حديثاً وهو أول فى موضوعه

الشريف فلا يلبث ان يزحزحها قائلا : « ان هذه الذراع تخبرنى بأنها مسمومة » فاذا هى مسمومة .

وتارة ترى الرسول يطلع فوق الجبل فيضطرب الجبل ويهتز فيضربه رسول الله برجله الشريفة ويقول له : « اثبت أحد فانما عليك نبى وصديق وشهيدان » فاذا الجبل ثابت

وتارة ترى الرسول يقول : « انى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل البعثة »

وتارة ترى الملائكة يجيئون رسول الله ويجالسونه ويقاتلون معه الأعداء .

وتارة تجد الطعام والشراب يسبحان بيده عليه الصلاة والسلام .

وتارة ترى غير ذلك مما لا يستطيع احصاءه المحصون وما لا تتحمله صحائف من الجرائد

ولقد قدر طائفة من علماء الأخبار معجزات رسول الله غير القرآن بألفين ، وقدرها غيرهم بثلاثة آلاف [1] . وكل هذه المعجزات رويت بالأسانيد . فاذا ماافترضنا لكل معجزة أربعة أسانيد ، وهذا أقل تقدير ، كان مجموع أسانيد المعجزات التى يصر الدكتور على انكارها اثنى عشر الفاً . فانظر بربك هل يمكن فى العقل الذى يتهافت عليه دكتورنا أن يوجد اثنا عشر الف رواية وتكون كلها كذباً لا يصدق منها شىء . أنظر بربك هل من المعروف للعقل والعادة ، أن تكون هذه الكثرة من الروايات كاذبة كلها ، مختلقة كلها ، مدسوسة كلها ؟ ! ماأهون الروايات إذن وماأهون التاريخ ، وماأرك عقل من يعتمد على التاريخ

(١) أنظر فتح البارى جزء سادس ص ٣٧٦

والروايات فى اثبات الاحداث ، وفى الايمان بالوقائع

اذا كان اثنا عشر الف رواية من أصح الروايات كذباً كلها ، اختلاقاً كلها ، فأية رواية تصدق ، وأى تاريخ يقبل ؟ ! انه لا شىء من ذلك ، إنه لا تاريخ ، إنه لا عقل ، إنه لا صحيح فى الدنيا . اثنا عشر الف رواية لا يصح منها شىء لدى صاحب كتاب « حياة محمد »

إذن كيف يصح عنده انه كان حجاج ، وكان عنترة ، وانه كان أبو تمام والبحترى والمتنبى وخلافهم . كيف يؤمن بهؤلاء ؟ ! إنه يجوز أن تكون الروايات فى الأخبار عنهم ، وعن صفاتهم كذباً ، كما يقول فى معجزات محمد . وإذن كيف يؤمن بالامام على وشجاعته ، وعمر بن الخطاب وعدالته ، وامرىء القيس وشاعريته ؟ ! لا . انه لا يثق بشىء من الروايات ، ولا يثق بشىء من المتواترات . وإذن لعل هؤلاء غير موجودين ، ولعل ما شهر عنهم من الصفات غير موجود ، وإذن لا رواية ولا تاريخ ولا علم ولا سير . اثنا عشر الف رواية تكون كاذبة كلها

إذن كل شىء كذب ، وكل شىء خطأ ، وإذن كل شىء شك ؟ !

ياما أهون ديناً يحمل عليه كل من استطاع حمل القلم ، وما أضيع ديناً يقول فيه ما شاء كل من استطاع الكلام فى السياسة والأدب والقانون ، وما أضعف ديناً يقال لأثبت شىء فيه ، وأقوى شىء فيه : هذا لم يكن ، هذا كذب ، هذا خلاف سنة الله وخلاف معروف العقل . وربك لقد هان الدين ، وهان التاريخ ، وهانت الدراسة ، وهانت كل حرمة فى هذا العصر وهذا البلد

أيها الدكتور الجليل : مهلا . فليس من المعروف للعقل أن تكون الروايات فى المعجزات كلها كذباً لا يصح منها ولا واحدة . ولئن جاز فى كل رواية وحدها أن تكون كذباً ، فلن يجوز عليها كلها الكذب بضرورة العقل . فالمعجزات بجملتها متواترة بل من أعظم المتواترات

ولينظر الدكتور هل يمكن أن يكون المتواتر كذباً ، ولينظر ، وهو الصديق للعقل ، هل من العقل أن تكون أفراد هذه الروايات كذبا كلها واختلاقاً كلها . وإذن فما هو المتواتر وإذن ما هى الأخبار التى يجب الايمان بها ؟ !

ليعلم الدكتور الفاضل أنه يصعب عليه جداً أن يثبت حادثه تاريخية من غير أن يصدمها الكذب والتكذيب إذا كان هكذا البحث لديه ، وإذا كان هذا سلطان التكذيب عنده .

لينظر هل يستطيع أن يشك فى جميع الأخبار عن على بن أبى طالب بأنه كان شجاعاً ، وعن أبى بكر الصديق بأنه كان تقياً ، وعن الحجاج بأنه كان ظالماً سفاكا وأنه كان من عمال عبد الملك بن مروان ، وعن حاتم طى بأنه كان جواداً ، وعن ابنه عدى أنه جاء رسول الله فأسلم وحسن إسلامه .

لينظر الدكتور هل يستطيع الشك فى الأخبار عن هؤلاء كلهم ؟!

لا نحسبه ، مهما أسأنا الظن ، يستطيع أن يشك فى ذلك . وإذن ليعلم أن أخبار المعجزات التى يصر على عداوتها وتكذيبها لا تقل عن أخبار هؤلاء كثرة وصحة . وهذا يعلمه عامة الناس فضلا عمن درس التاريخ والمنطق والفلسفة . لاجرم أن مؤلفنا الضليع بالمنطق وقوانين البحث قد طاش به البحث هنا كثيراً

على أن الدكتور هنا قد نسى أقوالا له فى أثناء الكتاب ، فقد نفى المعجزات هنا جملة وبلا رحمة ، وأثبت فى أثناء كتابه الإسراء والمعراج ، وأوجع المنكرين تأنيباً ، كما أثبت معجزة الغار تبعاً للمستشرق الفرنسى الذى يعرب عنه . فأى بحثيه الصحيح عنده ، وعلى أيهما يعتمد ، وأيهما الخطأ يا ترى ؟ ! نترك الجواب له

والإسراء والمعراج ثابتان فى القرآن : الاسراء فى سورة الاسراء والمعراج فى سورة النجم (١) فلن يجرأ مؤلفنا على المجاهرة بتكذيب هاتين المعجزتين وهما قرآنيتان وهما يفسدان عليه بحثه وحجته هنا افساداً لا يستطيع له اصلاحاً . وفى الحق أن كاتبنا كثير النسيان كثير الذهول عما يثبت فى كتابه

انظر اليه يقول ص ٢٨٥ : « العظماء لا يخضعون لقانون . وان القوانين التى تجرى على الناس لا سلطان لها على العظماء ولا سلطان لها من باب أولى على المرسلين والأنبياء . .

« فقد كانت عظمة عيسى ونبوته ورسالته معجزة الله فيه وخرقه لنواميس الكون وسنن الطبيعة وقوانين الخلق من أجله . فمن عجب أن يدعو المسيحيون المبشرون الى الايمان بهذا الخروج على سنة الكون فى أمر عيسى وأن يأخذوا محمداً بما هو دونه وما لا يزيد على أنه سمو عن الخضوع لقانون المجتمع يسمح به لكل عظيم ويسمح به للملوك ورؤساء الدول الذين تقدسهم الدساتير . كان فى مقدورنا أن نجبه هذه الأقوال جميعاً بهذا الرد وكان فيه من غير شك ما يسقط حجة المبشرين ومن ينهجون نهجهم من المستشرقين »

(١) أنظر ص ١٧٥ من كتاب مشكلات الأحاديث النبوية

ألا يرى الدكتور ويرى القارىء معه أن مقالته هذه تهدم عليه قوله الذى نحن بسبيله ، والذى نفى به المعجزات حيث أخضع رسول الله أعظم العظماء لقانون الناس الذى لا يفلتون منه ، وحيث حكم بأنه انسان لا يفلت من معانى الانسانية وقيود الانسانية فى قليل ولا كثير ، وحيث جهر بأنه لا معجزات له لأنه انسان خاضع لمعانى الانسانية ؟!

ألا ترى يا صاح أن الدكتور ، كما ذكرت لك ، كثير النسيان كثير الذهول عما يثبت فى كتابه ، فما سبب كثرة ذهوله وكثرة نسيانه فيما تظن ؟ وألا ترى يا صاح أن هذا القانون الذى وهبه للعظماء وجبه به المسيحيين والمبشرين يقضى على نفيه المعجزات قضاء مبرماً ويجبه نفيه جبهاً شديداً .

هكذا يا سيدى الدكتور ، وربك ، الحقيقة المرة ، وهكذا الواقع المغضب والعجب العاجب قوله إن الرسول كان يصارح أصحابه بأنه لا معجزة له وأنا أؤكد له توكيد الواثق أنه عليه السلام مانفى عن نفسه المعجزات ولا صارح أصحابه بذلك ، وأؤكد توكيد الواثق أنه لا رواية فيما زعم لا صحيحة ولا ضعيفة ، وأؤكد له أنه لم يقل قبل كاتبنا عالم بأن محمداً عليه الصلاة والسلام نفى عن نفسه المعجزات ، وإن كان لدى الدكتور نقل فليثبته فاننا نقبله مع الشكر والحمد الجزيل ، فنحن ممن يتبعون الحق للحق وحده . والروايات التى ذكرها ليست فى سبيل مما أراد ولا تمت اليه بصلة . وقد أصابها بشىء من التحريف اللفظى كما أصابها بالتحريف المعنوى ، وقد حسب أن دعوة محمد لا تحتاج إلى المعجزات ، واذن لا معجزات . هكذا حسب ، وهكذا حكم . دعوة

محمد غنية عن المعجزات فلا معجزات . لا أدرى كيف أغناها عن المعجزات ، وكيف لا يجد فائدة مطلقاً فى المعجزات ، وكيف لا يقدر أن يفهم أن قوماً من أعداء دعوة محمد قد يؤمنون بالمعجزات ، وقد يزدادون إيماناً لها ، وقد ينفعهم الله بها فتكون لها فائدة كى يؤمن بها مؤلفنا وكيلا يشتد فى انكارها وكيلا يلج فى عداوتها وتكذيبها ؟!!

ماأعظم فائدة المعجزات لو أن الدكتور تمهل ، وماأعظم بركة المعجزات لو أنه تريث . فللمعجزات من التأثير على أكثر النفوس ما لا يوجد إلا فيها ومالا يكون إلا لها . وكم يؤثر على قريش أن ترى الماء ينبع من بين أصابع رسول الله عند ما يمسهم الظمأ ، فاذا الماء كثير ، وإذا القوم مرتوون . وكم يؤثر على الأعرابى أن يطلب من رسول الله نقل الشجرة من مكانها فيرغب رسول الله إلى الله فاذا بها منتقلة ، ويرغب إلى الله لترجع فاذا هى راجعة . لا أحسب أحداً من خلق الله يزعم أن مثل هذه المعجزات لا فائدة فيها ، ولا أحسب أحداً يمارى فى أن لهذا النوع من التأثير والسلطان ما لا يوجد فى المعجزات العلمية

والناس طبقات فى تفكيرهم واستعدادهم : فريق لا يؤمن الا بالمعجزات الحسية . وفريق لا يؤمن الا بالمعجزات العلمية . وفريق يؤمن بالنوعين معاً ، ويزداد إيماناً بالنوعين معاً . ومحمد رسول الطبقات كلها . فكان من حكمة الله أن ينوع له المعجزات ، وأن يعزز دعوته بما عزز به دعوة جميع من سبقه من الرسل ، لأنه قد أرسل إلى أمم الأنبياء كلها ، ولأنه رسول الأحمر والأسود . وهل من الحكمة أن يطلب من النبطى والأعرابى والفلاح أن يعقلوا المعجزة العلمية ويدركوا اعجازها

ودلالتها على النبوة ولا يرسل الله اليهم ما به يطمئنون كالمعجزات الحسية الملموسة ؟!

لا شك أننا إذا جرينا مع العقل لم نر بدأ من الايمان بالمعجزات الحسية الملموسة .

ومؤلفنا يحسب الناس كلهم فلاسفة مثله غير محتاجين الا الى الدعوة المعقولة ، فاذا هم يسلمون ، واذا هم يؤمنون ، وإذا إيمانهم يقوى ، وإذا هم يتفانون فى الدفاع عن الدعوة المعقولة ، وإذا هم يجاهدون دونها كما فعل الدكتور . ولكن فاته أن كون الشيء معقولا لا يضمن له قبول الناس إياه

ومؤلفنا يحتج هنا وفى مواضع من كتابه على نفي المعجزات بأنها خلاف سنة الله . وهو يعجل كثيراً فى هذا الحكم وإلا لما زعم أن إثبات المعجزات يخالف سنة الله وهو يؤمن بالمعجزات لسائر المرسلين

فيا سيدى الدكتور اذا كان جميع المرسلين جاءوا بالمعجزات فكيف يكون مجيء محمد بها خرقا لسنة الله ألا يكون حرمان محمد منها خلاف سنة الله، عكس ما تدعى هذا هو الحق يا صاح ولا ريب

وكم نخشى أن يكون مؤلفنا يرمى من وراء هذه المقالة إلى الشك فى المعجزات التى فى القرآن وغير القرآن لأنه يحرص جداً على الايمان بسنة الله . يأبى أشد الإباء أن يخالف سنة الله . يخالف الأولين والآخرين ولا يستطيع أن يخالف ما يسميه سنة الله . وهو يرى مع هذا أن وجود الخوارق خلاف سنة الله . اذن لا خوارق لا فى القرآن ولا فى غيره . كم نخشى أن يكون الدكتور يرمى بمقالته هذه الى هذه

النتيجة المرة ويرمى بالمقدمات الى النتائج وإن خالفت النتائج الأولين والآخرين ، اللهم إن الخطأ فى المنطق والتناقض فى المنطق أيسر عندنا من أن يسير المنطق فى سبيله إذا كانت نتائجه تصيب الدين فى المقتل

قصة الفداء والذبح

وقال فى ص ٤٨ ، تحت عنوان قصة الفداء فى القرآن : « وقصة الذبح والفداء أن ابراهيم رأى فى منامه أن الله يأمره بأن يقدم ابنه قرباناً له ، فيذبحه ويحرقه فسار وابنه فى الصباح (فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم) » .

ولعله من العجب أن يخطىء الدكتور فى آيات القرآن التى نقلها فيزعم أن الله أمر ابراهيم بأن يذبح ابنه وأن يحرقه ويزعم أن ذلك فى القرآن . والقرآن ليس فيه ، كما رأيت فى الآيات التى نقلناها لك ونقلها الدكتور ، ذكر للتحريق ، وإنما فيها الذبح فقط

ولا أدرى كيف جاءه هذا السهو مع ألمعيته التى لا تدفع ، ومع تحريه فيما يكتب وما يدع ، كما لا أدرى كيف فات ذلك مراجعى تصحيح الكتاب . أخشى أن يكون هذا دليلا على هروب القرآن الكريم من الصدور المسلمة . والكبش الذى افتدى الله به ابن ابراهيم لم يحرق ،

وإنما ذبح وتصدق بلحمه على الفقراء والمعوزين ، والأضاحى التى يذبحها المسلمون فى عيد الأضحى هى استنان بما فعله ابراهيم عليه السلام

قصة شق الصدر ومنطق الدكتور

وقال فى ص ٧٢ : « أسطورة شق الصدر »

وذكر تحت هذا العنوان أن هناك رواية تقص أن الملائكة جاءوا محمداً وأناموه وشقوا صدره وخاطوه ، ثم ذكر أن المستشرقين لم يطمئنوا إلى صدق هذه الحادثة ، ثم اختار هو أنها أسطورة كما ذكر فى العنوان ، ولم يعبأ بالرواية ، كما لم يعبأ برواية أصدق الرواة وأعلمهم بالروايات لها وهم شيوخ المحدثين البخارى ومسلم وغيرهما

وكتب فى الصفحة التالية مقيما الدليل على شكه فى القصة بل على نفيه لها : « وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من هذا الحادث أن حياة محمد كانت كلها حياة إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق . وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا . غير متفق مع تعيير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها »

ونحن هنا لا نعنى بمسألة شق الصدر كثيراً ولا يعنينا قبول الدكتور

لها أو رده إياها ، فهى مسألة فردية ، الخطب فى تكذيبها ، وإن تكن واقعة صدقاً ، سهل . فليس فى تكذيب الدكتور لها ما يدعونا إلى مؤاخذته ، وإن يكن غيرنا قد يؤاخذ على ذلك ويرى فيه جناية أو شبه جناية على الروايات ، كما قد يرى فيه تشجيعاً لأقوام على رد الأخبار الصحاح لأهون الأسباب ، لمجرد شبهة تثب فى الرأس أو تلجلج فى الضمير . وما أكثر الشبهات على كل صحيح لدى من يطاوعها ومن ينساب معها ، كما يرى فى نفى الحادثة ما يهون من شأن الحديث ورجال الحديث وكتب الحديث فى عصر أظهر ميزات أهله الشك والتفاخر بالشك ، والقدح فى الاسلاف وما تقوله الاسلاف

فرد قصة شق الصدر لا يهمنا هنا كثيراً وإن كان فيه ما ذكرنا وأكثر مما ذكرنا ، وإنما يهمنا هنا منطق نفى القصة ، الدليل على نفى القصة ، حجة الدكتور على أن القصة أسطورة من الأساطير . وهو قوله : « وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين ، الخ . . »

فإن فى هذه الحجة ما يستحق البحث والدراسة ، وما يستحق أن نشغل التفكير فيه ولو بعض الوقت .

والدكتور هيكل من رجال القانون الحاذقين بالمنطق وصياغة المنطق ، الحاذقين بمنتج الدلائل وعقيمها ، فهل يسمح بأن يسمع قولا هو به أعلم ، فإن قوانين الدلائل وقوانين المنطق ، وإن تكن لها علوم تدرس ، يشترك فى فهمها جميع العقلاء ، حتى البدوى فى خيمته ، والزارع فى حقله

يرى الدكتور أن حياة محمد حياة انسانية بحتة ، ويرى أن شق الصدر يتنافر مع الحياة الانسانية . إذن لم يشق الصدر . هكذا يصوغ الدكتور برهانه

وأما نحن ، وأما أنت أيها القارىء ، فلا ندرى ، كما لا تدرى ، كيف ينافى شق الصدر الحياة الانسانية ، وكيف لا يشق صدر الانسان ، ونحن نرى الطب الآن يشق ما يشاء من الصدور ، بل يشق ما يشاء من جسم الانسان ؟ ! كما لا ندرى كيف لا يشق الله صدر من شاء من عباده ويخصه بما يشاء ؟ !

وهل من الحياة الانسانية لدى دكتورنا أن يعرج بالانسان الى السماء ، ويسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى فى ليلة واحدة ، والدكتور يؤمن بالاسراء والمعراج ؟ !

وهل من الحياة الانسانية إحياء الموتى وإبراء الأبرص والأكمه ، والدكتور يؤمن بأن عيسى عليه السلام انسان وان حياته حياة إنسانية ، ويؤمن بأن عيسى كان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص باذن الله ؟ !

وهل من الحياة الانسانية أن يلقى الانسان عصاه فاذا هى حية تسعى ، واذا هى تلقف ما أمامها ، والدكتور يؤمن بأن عصا موسى كانت كذلك ، ويؤمن بأنه كان انساناً وان حياته حياة انسانية ؟ !

وهل من الحياة الانسانية أن يلقى الانسان فى النار فلا تصيبه بسوء ، واذا هى برد وسلام ، والدكتور يؤمن بأن ابراهيم ألقى فى النار وخرج منها سليما ، ويؤمن بأنه كان إنساناً وبأن حياته حياة انسانية ؟ !

بل هل من الحياة الانسانية أن يبقى الانسان فى النار الموقدة لا يموت

ولا يحيى ، والدكتور يؤمن بأن الذين يكفرون بالله ويجحدون الحق من الأناسى هم فى النار وهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، الى غير ذلك من الأمثال التى تصادم هذه الحجة ولا يمكن أن تقابلها ؟ !

إذن الاستدلال على نفى قصة شق الصدر أو غيرها من الخوارق عن رسول الله بحجة أنه كان انساناً وأن حياته كانت حياة انسانية استدلال يذوب أمام المنطق الصائب ، ولا يقف أمام البحث الصحيح ، لا طويلا ولا قصيراً .

والدكتور يستدل على نفيه القصة بأنها لا تدخل فى معروف العقل ، أى إن العقل لا يجيزها ، بل يراها من طائفة المستحيلات . ونحن وإن توقفنا فى كل شىء أو شككنا فى كل شىء فاننا لا نستطيع أن نشك وأن نتوقف فى أن العقل لا يأبى أن يشق الله صدر محمد أو غيره من عباده ونحن فى زمن الجراحة والجراحين.

ومثل عملية شق الصدر يقع كل يوم على علم من الدكتور ، بل على علم ممن هو أقل من الدكتور . ولو أن العقل يأبى شق الصدر ، ويأبى جوازه لكان إباؤه لسائر معجزات الأنبياء التى ذكرناها والتى يؤمن بها الدكتور أشد وأقوى . والعقل فى حكمه على الأشياء بالاستحالة والجواز ، لا يفرق بين زمان وزمان ، ولا بين مكان ومكان ، كما لا يفرق بين نبى ونبى ، فلا يفرق بين عيسى ومحمد كما لا يفرق بين محمد وموسى

فاذا كان من المعروف للعقل معجزات موسى وعيسى وغيرهما ، لم يكن من المجهول للعقل مسألة شق الصدر يقيناً ، والا لو عرف

العقل تلك الخوارق للانبياء ، ولم يعرفها لخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام ، لم يكن عقلا بل كان وهما زائلا وعاطفة غير مضبوطة . وإذاً لابد أن يعرف العقل هذه الخوارق كلها أو يجهلها كلها . وأما أن يعرفها لجميع الأنبياء وينكرها لمحمد . فشيء لا نعرفه ولا نرضاه من العقل ، وإلا لثرنا عليه ولما تفاخرنا به وتهاجونا بفقده

والدكتور يستدل على كذب القصة بأنها تبديل لسنة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

وأما نحن وأنت أيها القارىء ، فلا نعلم أن هذه القصة تخالف سنة الله ، وأنها تبديل لها ، وما نحسب القراء يعلمون ذلك . إن إثبات هذه القصة لرسول الله إثبات له من حيث هو رسول لا من حيث هو انسان فقط . فان كانت سنة الله ألا يخلق الخوارق على أيدى الأنبياء الذين سبقوا محمداً أمكن أن يقال إن سنة الله تأبى أن يخلق خارقة لمحمد عليه السلام وأمكن أن يقول دكتورنا إن سنة الله التى لا تبدل تأبى شق الصدر . وأما إذا كانت سنة الله المعروفة أن يخلق الخوارق على أيدى الأنبياء السابقين ، باعتراف دكتورنا واعتراف كل مؤمن بالأنبياء وباعتراف كل مؤمن بالكتب المقدسة ، لم يكن من سنة الله إباء ذلك فى حق آخرهم ، ولم تكن سنة الله لتبخل بها على أفضلهم . بل اذا كان الأمر كذلك ، وهو كذلك ، وجب أن يقال إن سنة الله تقضى بأن تقدم لمحمد عليه السلام أنواعاً من ذلك ، وتقضى بأن تمنحه نصيباً كبيراً من هذه المنحة التى تفضل الله بها على سائر الأنبياء : عيسى وموسى وابراهيم وخلافهم

وأما لو قلنا إن سنة الله وهبت هذه المنحة كل الأنبياء الذين قبل محمد ، وقسمت عليهم من ذلك ما شاء الله ، فلما أن جاءت عند خاتمهم وأعمهم ديناً ودعوة حرمته ذلك الفضل حرماناً باتاً ، لخصصنا سنة الله ، ولخالفناها ، ولما تركناها على نمط واحد .

هكذا يجرى البحث ، وهكذا ينتج الامعان فى البحث الحق ، لا كما قال دكتورنا الجليل .

على أن العجيب جداً أن يختم برهانه بقوله :

« ويرون ما ورد فى ذلك غير متفق مع تعبير القرآن للمشركين بأنهم لا يفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها »

ولن نأثم أو نغالط إذا قلنا إن تعبير القرآن للمشركين بأنهم لا يفقهون ، لم يدل قط على كذب رواية شق الصدر أو غيرها من الخوارق ، أو قلنا إنه لم يستدل أحد من مفكرى علماء الاسلام ، قبل الدكتور ، بذلك على كذب هذه الرواية ، أو قلنا إنه لم يقع فى بال عليم بالقرآن منذ ثلاثة عشر قرناً على أن قول القرآن الكريم إن الكفار لا يعقلون لم يكن دليلا أو بعض دليل على كذب هذه القصة واختلاقها

وإن استطعنا أن نحمل تعبير القرآن كل رأى فى الأرض ، فلن نستطيع أن نحمل قوله فى الكفار إنهم لا يعقلون الدلالة على أن رواية شق الصدر من أساطير الرواة وأوهامهم

وإن وجدنا لكل رأى فى تفسير كتاب الله مخرجاً قد يقبل وقد ينفق عند فريق من الناس ، فلن نجد لهذا الرأى فى تفسير الآيات مخرجاً .

ونحن لو احتججنا على إثبات هذه القصة بما احتج به الدكتور على نفيها ، لكان احتجاجنا أقرب إلى الواقع ، ولكان أكثر توفيقاً فى ميزان النظر .

وبيان ذلك أن الكفار مكذبى محمد عليه السلام كانوا يكذبونه كلما أخبرهم بما لم يعتادوه وبما لم يقع تحت حسهم ، كما كذبوه لما أخبرهم بالاسراء والمعراج ، وكما كذبوه لما أخبرهم بأن فى النار شجرة الزقوم ، وقالوا كيف تبقى الشجرة فى النار ولا تحترق ، وكما كذبوه لما أخبرهم بأن الملك يأتيه وهم لا يرونه ، وكما كذبوه ، إذ أخبرهم بالبعث وبحشر الأجسام ، قائلين : إن ذلك غير مستطاع ، وكما كذبوه إذ أخبرهم بما خلق الله على أيدى عباده السالفين من الخوارق والمعجزات ، وكما كذبوه فى كل ما أنبأهم به مما لم تتسع له آفاق عقولهم الضيقة بحجة أنهم لم يروه ولم يحسوه .

هكذا كان شأن رسول الله ، وهكذا كان شأن الكفار معه : يحدثهم عن أسرار الله وعن شؤونه فيقابلونه بالكفران محتجين بأنهم لم يروه فهو غير مستطاع وغير داخل فى حدود القدرة ، فيرد الله عليهم ويرد عليهم رسوله بأن الله على كل شىء قدير وبأنه لا يعاجز ولا يغالب ، فما لهم لا يعقلون ولا يتدبرون ، وما لهم لا يستدلون بما رأوا على ما لم يروا مما يدل على شمول قدرة الله وعظيم سلطانه ؟ ! فما لهم ينكرون قدرة الله على خلق هذه الخوارق ، وعلى شق صدر رسوله ، وعلى الاسراء والمعراج ، وفى أنفسهم الدلائل على ذلك ، وفيهم الدلائل

القاهرة على ما أنكروا وجحدوا ؟ ! فما لهم لا يفقهون وفى أنفسهم أفلا يبصرون ؟ !

هم ينكرون الخوارق والمعجزات ، وفيهم الخوارق والمعجزات ، وفى خلقهم وموتهم وحياتهم الخوارق والمعجزات ، وفى أحقر عضو فيهم وأبسط تكوين فى أجسامهم توجد الخوارق والمعجزات

ينكرون على الله أن يشق صدر رسوله وهم يشاهدونه يشق لهم الاسماع والأبصار ، يشق لهم الأفواه والآذان ، ويشق لهم الأصابع والأعضاء ، ويشق لهم ويشق ، ويبدع فى الشق ويحكم فى الشق . فما لهم إذن ينكرون تلك الخوارق ؟ ! أفليست لهم قلوب يعقلون بها ما يشاهدونه ويستدلون به على ما لم يشاهدوه ؟ ! فما أضيق عطن من كذب بما لم ير ، ومن جحد كل ما لم يقع تحت حسه ! فما اضيق عطن الكفار وأقل عقولهم وتفكيرهم !

ولو أن القوم رزقوا شيئاً من سعة التفكير ، وشيئاً من الاختراع فى التعقل ، ما أكبروا هذه الخوارق على قدرة الله ، ولكن القوم لا يعقلون ولا يتدبرون ، فهم كالأنعام لا يصدقون إلا بما يبصرون ، فهم فاقدون حاسة المنطق ، تلك الحاسة التى تستدل بالمقدمات على النتائج ، وتعلم المجهول بالمعلوم .

ألا ترى بعد هذا أن هذه الحجة التى احتج بها الدكتور على كذب القصة هى فى الواقع فى جانب من يثبت القصة ؟ !

وألا ترى بعد أن هذه الحجة لا تدل البتة على ما أراد الدكتور ؟ !

ثم ألا ترى ، بعد ما قدمنا ، أن من يأبى الايمان برواية شق الصدر بالدليل الذى ألفه مؤلفنا فى كتابه ، لا بد أن يأبى بنفس الدليل جميع الخوارق والمعجزات فى كل زمان ومكان ، ولا بد أن يأبى ذلك فى حق عيسى وموسى وغيرهما ، ولا بد أن يأبى الايمان بما ذكره القرآن من تلك الخوارق ؟ !

وإننا لو ذهبنا نقيس ، أو لو أردنا الذهاب مع القياس الصائب ، لذهب بنا القياس إلى الايمان بالخوارق من شق صدر وخلافه ، أو لما كان القياس مانعاً من الايمان بذلك ، فاننا نرى التخصيص قد نال مخلوقات الله كلها. ننظر الشمس فنجد الله قد خصها بخصائص لا توجد فى غيرها ، وننظر إلى القمر فنجده كذلك ، وننظر إلى الأرض فنجدها كذلك ، وننظر إلى سائر الأجرام العلوية فنجدها كذلك ونجد فيها التخصيص والتمييز ، بل ننظر إلى كل شىء فى هذا الكون من بسيط ومركب فنجد التخصيص قد ساده ، فنجد خصائص فى النار لا توجد فى الماء ، كما نجد فى الماء خصائص لا توجد فى الهواء . وهكذا كل شىء فى الأرض والسماء

فاذا كان الله قد عم خلقه بالتخصيص فكيف نأبى التخصيص لرسل الله ، فنأبى أن يكون الله قد خصهم بشىء ، ونصر على أن يكونوا كسائر الناس تماماً ألا يكون هذا منازعة لسنة الله وانحرافاً عن المنطق الصائب؟!

قبل الجواب على هذه الأسئلة نرجو الدكتور ، ونرجو القراء ، ونرجو كل من يعشق الحق للحق ، أن يفكروا فى ذلك جيداً وأن يحكموا الحق فيما يقولون وما يصدقون

ممن تعلم موسى التوحيد ؟

وقال فى ص ٢٧ : « فى مصر نشأ موسى وفى حجر فرعون تربى وتهذب وعلى يد كهنته ورجال الدين من أهل دولته عرف الوحدة الالهية وعرف أسرار الكون »

ولا أظن قارئاً يرضى مقالة الدكتور هذه ، لا أظنه يرضى أن يكون موسى نبى الله وكليمه قد تلقى وحدة الله وتوحيده وعلم أسرار خلائقه وما فيها من آيات ومن عبر ومواعيظ على أيدى كهان فرعون ورجال دينه ، لا أظن القارىء يرضى ذلك البتة ، بعد أن قص الله عليه ، وبعد أن قص عليه التاريخ ، ما كان يزعم فرعون لنفسه من ألوهية وربوبية ، وما كان يجاهر به من إنكار للاله الحق سبحانه وجحد له ، وبعد أن قص التاريخ طاعة قومه له ورضاهم بما فرض عليهم من العبودية له ، لا جرم أن القارىء سوف يعترف أن هذه القولة من أعظم زلات القلم

كم ينفر المسلمون وكم يغضبون أن يقال إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تلقى التوحيد وعرف الله وعرف أسرار خلقه على أيدى كهان العرب وعلماء الوثنيين ، أو على أيدى أحبار اليهود ورهبانهم ، أو على أيدى علماء النصارى وقسيسهم ، أو يقال تلقى ذلك على أيدى الشعراء والحكماء .

إن المسلمين عموماً ، ومن أولهم الدكتور ولا شك ، لا يرضون ذلك ولا يستسيغونه ، فكذلك لا يمكن أن يقبلوا هذه المقالة فى حق نبى من أنبياء الله لا موسى ولا غيره

ولقد كان من اليسير جداً على كاتبنا العظيم أن يراجع آيات القرآن للعلم بأن موسى عليه السلام قد تلقى وحدة الله عن عالم السر والنجوى ، وقد كان من السهل مراجعة قوله تعالى من سورة الشعراء : (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون) إلى قوله : (قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذن وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) الخ الحوار بين نبى الله موسى وبين فرعون

فهذه الآيات فى غاية الصراحة فى أن فرعون وقومه ما كان لهم علم بهذا الشأن ، شأن توحيد الله ، بل ولا كان لهم علم به تعالى . فما أبعد ان يعلموا موسى ذلك التوحيد الذى لم يرضوه منه ولم يقابلوه إلا بالتكذيب والكفران كما هى صريحة بأن نبى الله موسى ما هدى إلى هذا العلم وإلى هذا النور الباثق إلا بعد أن فارق فرعون وملأه الظالمين.

هل تحبل العقيم من الغيرة ؟

أما ما رآه مؤلفنا ص ٤٨ من أن سارة حملت من الغيرة ، وأن الغيرة قد أذهبت عنها العقم ، فهذه مسألة نفسية ، ولسنا لسوء الحظ من علماء النفس ، فلن نقدر على قبولها أو نفيها على حذو العلماء النفسيين. ولكن الأمر الذى لا ينبغى أن نغفل عنه ، كما لا ينبغى أن يغفل عنه كاتبنا ، هو أن قصة حمل سارة قد ذكرها القرآن فى آيات . ولنضعها أمام القارىء الكريم لينظر أين تتجه ، وليعلم مبلغ قول مؤلفنا من الصحة ،

وهل يماشى الآيات أم ينافيها ، والحكم للقراء وحدهم فى أنفسهم :

قال تعالى فى سورة هود : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد)

وقال فى سورة الذاريات : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) إلى قوله : (فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم)

ولقد كنا نسمع العامة يقولون إن غيرة المرأة قد تؤثر فى العقم وقد تكون سبباً للحمل وقد تحمل المرأة إذا ما واثبت الغيرة نفسها . وكنا نظن أن المسألة مسألة عامية صرفة لا نصيب لها من التحقيق والعلم ، فاذا بنا نرى كتابنا الأعلام العصريين يقررونها ويؤمنون بها ، وإذا بنا نعلم أن علماء النفس أو بعض علماء النفس يقولون ذلك ويؤمنون به ، وإذا بنا نجد ما كان يعد بالأمس خرافة اليوم حقيقة وعلماً ، وإذا بنا نرى الآراء تتبدل والأنفس تتغير

رحلة محمد عليه السلام الاولى الى الشام

وقال ص ٧٦ : « إن محمداً عليه السلام فى رحلته الأولى إلى الشام قد لقى أحبار النصارى ، ووقف على النصرانية ، وسمع من الكتب المقدسة ، وسمع منهم بعض أخبار الغيب التى نبأ بها القرآن فتحققت نبوءته »

وليس للدكتور على هذه المقالة من برهان غير قول المستشرقين الذين ينكرون نبوة محمد ، والذين ينكرون أن يكون بينه وبين السماء صلة ، والذين يقولون إن ما جاء به من توحيد ومن أمور صائبة صحيحة غالبه مأخوذ من علماء عصره . وهذا قول المشركين فى زمنه عليه السلام . قال الله تعالى فى سورة النحل : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) . وقال فى سورة الفرقان : (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا)

والقرآن مصرح كل التصريح بأنه عليه السلام ما كان يعلم من ذلك شيئاً قبل أن يوحى إليه . وفى سورة هود : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) . وفى سورة الشورى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان)

ولعلها إحدى عجائب الدنيا أن يزعم الدكتور أن طفلا يبلغ من العمر إثنى عشر عاماً على قول وتسعة أعوام على قول آخر ، طفلا

عربياً فقيراً يتيماً ، يذهب إلى بلاد الشام ، بلاد الحضارة والغنى والكبرياء ، فتتنزل له أحبارها ورهبانها من سماء كبريائها وتألهها لتجادله فى الدين ولتفقه على أسرار النصرانية ، ولتسمعه من أخبار الغيب ومن كتبهم المقدسة المضنون بها على غير أهلها . ونحن نعلم ، والدكتور يعلم ، ما كان للأحبار فى ذلك الزمن من العظمة ومن الكبرياء والتأله . نعم ، لعل هذا الزعم إحدى عجائب الدنيا

رحلته عليه السلام (الثانية)

وذكر ص ٨٣ أنه عليه السلام قد اتصل فى رحلته الثانية إلى الشام بالنصرانية ، والتقى بالأحبار والرهبان ، وجادلهم وجادلوه فى دين عيسى ، وحادثهم وحادثوه .

وهذا أيضا مقال منكرىٔ نبوته عليه السلام ، وهو خيال محض لا نصيب له من الرواية ولا من الحقيقة ولا من المنطق . فلقد يصعب على المنطق أن يسلم أن شاباً عربياً أمياً فقيراً يذهب لبلاد الشام ليتجر فيقف على النصرانية ويلتقى بالأحبار والرهبان فيجادلوه فى دينهم وفى دين عيسى ، ويحادثهم ويحادثوه . أجل ، هذا شىء كثير على المنطق ، وشىء لا يستطيع أن يسلم به أبداً

هل كان عليه السلام مشغولا بتلقى البلاغة ؟

وذكر ص ٧٧ أنه عليه السلام كان مشغولا بتلقى البلاغة فى أسواق العرب على الشعراء والحكماء ، مشغولا بتلقى الحق من علماء

اليهود والنصارى ، ومايقصونه عن كتبهم المقدسة وعن موسى وعيسى

وهذا أيضا ليس له عليه من دليل سوى قول الجاحدين رسالته عليه السلام

وإلى هذا يعزون ما فى القرآن من بلاغة ومن سمو فى التعبير ، وما فيه من حق ومن تاريخ صائب صحيح ، ومن أخلاق فاضلة عليا

وهذا كله خلاف ما أجمع عليه علماء الرواية وعلماء التاريخ من أنه عليه السلام كان مبتعداً عن ذلك كل الابتعاد ، وكان نافراً منه كل النفور . كان بعيداً عن قومه وعن مجالسهم وعما فيها من قريض ومن بلاغة

ولقد صح فى كتب الحديث الصحاح أنه كان ينشد الأشعار فلا يأتى بها على وجهها ولا يأتى بها موزونة ، فيقول له أبو بكر : بأبى وأمى أنت يارسول الله لست بشاعر ولست براو للشعر .

ولقد يكون من اليسير على العرب أخصام محمد ، إذا كان الأمر كما زعم الدكتور ، أن يقولوا له : إن القرآن الذى جئتنا به ماهو إلا من بلاغتنا التى تلقيتها فى أسواقنا ومحافلنا . وقد ذكر الله فى القرآن أنه تعالى حرمه تعلم الكتابة والقراءة لئلا يطعن عليه المخالفون بذلك فيقولوا : إنك تعلمت وإنك قرأت .

ابراهيم يدعو الناس الى احترام عقله

ويذكر ص ٤٧ أن نبى الله ابراهيم كان يدعو الناس إلى احترام عقله ، كما ذكر هنا لك أن الذى هداه إلى التوحيد وإلى محاجة المشركين طول تفكيره وكثرة إمعانه فى البحث

مجىء ابراهيم الى مصر

وفى ص ٤٨ عبث بقصة ابراهيم لما جاء إلى مصر مع زوجه سارة عبثاً كنا نربأ به عن أن يقع فيه . قال فى الصفحة المذكورة : « ومن فلسطين ارتحل إلى مصر ، وبها يومئذ ملوك العماليق ، وكانت سارة جميلة وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات ، فأظهر إبراهيم أن سارة أخته خشية أن يقتله الملك ليتخذها له زوجاً ، فرأى فى المنام أنها ذات بعل ، فردها إلى إبراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تدعى هاجر ، ولما كانت سارة قد سلخت السنين الطوال مع إبراهيم ولم تلد ، فقد دفعته ليدخل بهاجر ، فدخل بها فلم تبطىء أن ولدت له إسماعيل ولما شب إسماعيل وترعرع دبت الغيرة فى نفس سارة فحملت ثم ولدت إسحاق »

هذا سياق كتاب حياة محمد . والسياق الصحيح هكذا : « عن أبى هريرة عن رسول الله عليه السلام قال : « لم يكذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن فى ذات الله قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) . قال وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له إن هذا رجل معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل اليه فسأله عنها ، فقال من هذه ؟ قال أختى ، فأتى سارة فقال يا سارة ليس على وجه الأرض مسلم غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى عنك فاخبرته أنك أختى فلا تكذبينى ، فأرسل إليها ، فلما

دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك فدعت فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلق ، فدعا بعض حجبته وقال إنك لم تأتنى بانسان إنما أتيتنى بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو يصلى فأومأ بيده : مهيم « أى ما ذا حصل » قالت رد الله كيد الكافر فى نحره وأخدم هاجر » رواه البخارى ومسلم أصح كتب الرواية بلا نزاع

ولتنظر ما بين السياقين من خلاف ، ولتنظر لماذا عدل الدكتور عن السياق الصحيح إلى سياقه الذى رويناه . أخشى أن يكون الحامل له على هذا فراره من المعجزة أو الخارقة التى وقعت على يد سارة

عبادة خديجة للاصنام

ويذكر ص ٩٠ ، ص ٩١ أن خديجة رضى الله عنها كانت تعبد الأصنام ، وكانت تقرب لها القرابين والنحائر فى الوقت الذى كانت فيه زوجاً لرسول الله . ويذكر أنْ رسول الله كان يراها وكان يرى عبادتها فلا ينكر عليها شيئاً ولا يعرفها أنها أخطأت

هذا . وهو يذكر أن رسول الله كان مبغضاً للأصنام ، مبغضاً لعبادتها ولعبادها ، منذ كان صغيراً ومنذ عرف الخير والشر

هل كان عليه السلام ينسى نفسه ؟

ويذكر ص ٩٢ أن رسول الله كان فى أوقات ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل شىء فى الحياة

وهذا حال المرضى والمصروعين و « المجاذيب » لا حال العاقل الرزين الثابت ، إلا أن يكون الدكتور يكتب شعريات لا علميات .

والشعر هو الذى تجوز فيه المبالغة ويروج فيه التهويل . والعلميات علميات فحسب

هل كانت خديجة تؤذى رسول الله

صلى الله عليه وسلم

ويذكر ص ١٠٠ أن خديجة ، تلك الزوج البارة العطوف الرحيمة ، كانت تقول لزوجها رسول الله فى أحرج ساعاته وأشد أوقاته : ماأرى ربك إلا قد أبغضك .

وخديجة التى يزعمها دكتورنا جبهت زوجها رسول الله بهذه المقالة الجافة الموجعة حقاً هى التى قالت له عند فزعه الأكبر « والله لا يخزيك الله أبداً » وهى التى يزعمها دكتورنا وزير صدق لرسول الله .

والرواية التى خدع بها هى رواية ضعيفة

دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة

ويذكر ص ١١٢ تحت هذا العنوان أشياء أنفر منها كل النفور ، أشياء يستوحش منها الفؤاد المؤمن ، ويزعمها أساس الدعوة المحمدية . وربما دل مقاله على أن دعوة محمد ودينه أشياء نظرية استدلالية لا تمت إلى السماء بسبب ، ويزعم أيضاً أن هذه الطريقة تقتضى الباحث أن يجرد نفسه من كل شىء ومن كل عقيدة سواء أكانت حقاً أم كانت باطلا

فمثلا إذا أراد مسلم أن يبحث الاسلام والأديان وجب عليه ان يجرد نفسه من كل عقيدة ، وأن يجرد نفسه من الايمان بالله ، ومن الايمان بمحمد عليه السلام ، ومن الايمان بالاسلام ، ومن الايمان بكل عقيدة ، ثم يشرع فى بناء عقيدته من جديد !

ولينظر القارىء ماهذا ؟! ولينظر هل هذه الطريقة الحديثة الاسلامية المحمدية ، كما يزعم ، من دين الاسلام فى شىء ؟ ! أو هل هى من المنطق الصحيح فى شىء ؟ !

حداد رسول الله على بعض نسائه

ويذكر ص ١٥٣ أن رسول الله قد أحد على زوجه خديجة ويظهر أن الدكتور لم يعلم أن الحداد خاص بالنساء ، وأن الرجال ليس عليهم حداد

هل كان رسول الله يواد اليهود

وهل كانوا موحدين ؟

ويذكر ص ١٨٩ ، ص ١٩٠ أن رسول الله كان يواد اليهود ، ويتقرب اليهم ، كما يذكر أن اليهود كانوا موحدين .

ولم ير بأساً فيما قال ، وإن كان القرآن يقول : (وقالت اليهود عزير ابن الله) ويقول : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ويقول : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)

والعجب العاجب أنه يذكر فى مواضع من كتابه أن اليهود كانوا ممعنين فى الشرك والكفر ، وكانوا ممعنين فى عداوة رسول الله وفى مناوأته ، كما كان هو ممعناً فى عداوتهم ومناوأتهم

غلطة

وفى ص ٣٠٢ يعذر طائفة من المنافقين ، قدحوا فى رسول الله ، وقدحوا فى صدقه ، وأسرفوا فى التهكم به حتى قالوا له فى بعض أيامه العصيبة الرهيبة : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الغائط »

هل أقر الاسلام شيئاً من الوثنية ؟

ويذكر ص ٣٩٦ أن سدانة الكعبة وسقاية الحجيج وثنيتان أبقى عليهما الاسلام وجعلهما من دين المسلمين .

وهذه المقالة من أعظم الأخطاء التى اصطدم بها الدكتور . ونحن لا نستطيع أبداً أن نجد لقوله هذا من تأويل صحيح ، فانه إن كان يريد أن السقاية والسدانة كانتا مما يعمله المشركون . فقد كان الحج ، وكان الطواف بين الصفا والمروة وفى الكعبة ، وكان شىء كثير ، يعمله المشركون ويؤدونه على أنه دين وعبادة لله . فلماذا استثنى السقاية والسدانة من أعمال المشركين ؟ ! إن فى الأمر لشيئاً ، وإن تحت مقاله لأمراً .

وأتذكر أن أبا العلاء المعرى كان يزعم أن الحج عمل وثنى ، وكان يعيب الاسلام بذلك

المقارنة بين المسلمين والغربيين

ويذكر ص ٤٩٤ أن نظرات أمم الغرب اليوم فى علوم الطبيعة وأبحاثهم الجديدة فيها هى النظرات التى تزيد الإنسان إيماناً بربه ، وهى النظرات التى حث عليها القرآن كثيراً للدلالة على الله وعلى عبادة الله ، وهى نظرات المسلمين الأولين فى هذا الكون .

ولعل مقارنة الدكتور بين النظرتين : نظرة المسلمين ونظرة الغربيين ، أو نظرة القرآن ونظرة الغرب فى هذه المخلوقات من أبين الأخطاء التى وقع فيها .

إن نظرات الغرب فى الطبيعة وفى الكون بأسره هى نظرات مادية صرفة يراد بها استخدام المادة واستخدام الكون بأسره فى مقارعة الانسان وفى التغلب على عباد الله بغياً وعدواناً . نظرات يراد بها استخدام الخلائق كلها فى الشهوات واللذائذ وفى إرضاء النفس الجامحة الحريصة . نظرات بريئة من الروحانية ، بريئة من الايمان والاعتبار . وهذه النظرات من أبعد النظرات عن الله وعن الدلالة عليه ، من أبعد النظرات عن أن تثمر لأصحابها غير التدمير والتخريب والتقتيل . وهذا هو الواقع اليوم فى الغرب .

وأما نظرات المسلمين ونظرات القرآن فهى نظرات روحية سامية كل السمو . هى نظرات اعتبار واتعاظ . نظرات استدلال على الخلاق العليم العظيم . هى نظرات بريئة من الطمع والمادة وهل تلتقي النظرتان حتي يلتقي الشرق والغرب وحتى يلتقي

الايمان والكفر ؟ ! وما مثل النظرتين إلا رجلان وقفا أمام قصر فخم مشيد ، وقفا ينظران إليه ، أحدهما ينظر إليه ليعلم كيف يهتدى إلى سرقة ما فيه والاستيلاء عليه بالعسف والجبروت واستخدام ما يجد فيه من ذهب وفضة وأموال فى ظلم صاحب القصر وفى ظلم خلق الله وفى استخدامه فى الفسوق والفجور . وهذه نظرة الغربيين فى هذا الكون .

وثانى الرجلين ينظر إليه معتبراً بحذق بانيه وحسن صنعته ، ذاكراً فضل الله وسثرة نعمه على مالكه ، ذاكراً ما يجب عليه من الحقوق والواجبات للفقراء وأبناء السبيل ، ذاكراً كيف فضل الله بعض العباد على بعض فى الرزق والعطاء حكمة منه ورحمة وعدلا ، ذاكراً كيف هدى الله الانسان لأن يبنى لنفسه أمثال هذا القصر للجمال وللحيطة من عدوان الطبيعة الثائرة ، راجعاً الفضل كله والمنة كلها إلى الله فى هذا القصر وفى كل شىء بيد الانسان . وهذه النظرة هى نظرة المسلمين الأولين ، وهى نظرة القرآن الكريم ، وهى النظرة التى أرادها القرآن من أهل القرآن .

ولتنظر هل تصطلح النظرتان ؟ !

الغربى ينظر إلى الكون قائلا : كيف أصنع بهذا ؟ . والمسلم الحق ينظر إلى الكون قائلا : سبحان خالق هذا (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)

المسلم يبحث فى الكون ليؤمن بالله . والغربى يبحث فى الكون لينكر الله . ولهذا فالمدارس العصرية الأوربية هى مصانع إلحاد وكفر برب العالمين

مذهب وحدة الوجود

وهنالك فى كتاب هيكل مسألة خطيرة كل الخطورة . هذه المسألة هى أنه يقرر فى مواضع من كتابه وحدة الوجود بعبارات مختلفة فى الوضوح . فقد ذكرها ص١٠١ ، ص١١٣ ، ص١٢٠ ، ص١٢٣ ، ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ . وقررها فى مواضع أخر ، وأكثر من ذكرها مما يدل على شدة اقتناعه بالمذهب وإيمانه به .

وقال فى ص ٤٣ : « النفوس الضعيفة أعجز من أن تسمو للاتصال بالوجود كله ولإدراك وحدته ممثلة فيما هو أسمى من كل ما فى الوجود ، ممثلة فى الله ذى الجلال ، وهى لذلك تقف عند مظهر من مظاهر هذا الوجود كالشمس أو القمر أو كالنار ثم تضعف عن الارتفاع بنفسها إلى تمثل هذا المظهر فيما يدل عليه هو أيضاً من وحدة الوجود .

« هذه النفوس الضعيفة تكتفى بوثن يتمثل لها فيه معنى مبهم وضيع من الوجود ووحدته فتتصل بهذا الوثن وتخلع عليه من صور العبادة ما لا تزال تراه فى بلاد العالم جميعاً »

وكلمته هذه أكثر كلماته إيقاعاً فى الشك . ولا أحسبنى متجنياً أو مخطئاً إذا قلت إن قوله هذا ربما دل على أن المشركين كانوا غالطين لأنهم عبدوا بعض هذا الوجود كالشمس والقمر مقتصرين على ذلك ، ولو أنهم عقلوا واتسعت مداركهم وآفاق عقولهم فعبدوا الوجود كله ممثلا فى ذات الله لكانوا راشدين ولكانوا غير مشركين . ولكن القوم أضعف وأعجز من أن يسموا إلى الاتصال بهذا الوجود كله لأنه ممثل فى ذات الحق سبحانه : أقول لا أحسبنى متجنياً ولا مخطئاً إذا قلت

إن كلام الدكتور ربما أعطى ما ذكرت وربما كان رامياً اليه من قرب أو من بعد .

مذهب وحدة الوجود تكلم فيه علماء المسلمين الأوائل كلاماً كثيراً وكتبوا فيه كتباً خاصة ، تكلموا فيه بين صوفية تائهين عن الحق مؤمنين بالمذهب داعين اليه ، وبين آخرين ناقضين عليهم رادين على المذهب مشتدين فى الرد . والمذهب يؤول إلى انكار الله . يرمى إلى تعطيل العالم من الخالق . يرمى إلى القول بالطبيعية وبقدم العالم . يرمى إلى هدم ما جاءت به الكتب المقدسة من الأساس . المذهب يقول إن الوجود واحد كله فليس هنالك خالق ومخلوق ، كما ليس هنالك عابد ومعبود ولا قديم وحادث . فالوجود إما أن يكون قديماً كله أو حادثاً كله . وأما أن يكون منه قديم ومنه حادث ومنه عابد ومنه معبود فليس كذلك لأن الوجود واحد ولأن وحدته تنافيه . ولقد قال هذه المقالة طوائف انتسبت إلى الاسلام وكتبت فى المسألة ، وأخيراً وقعت فى الجحود والالحاد ، حتى قال بعض هؤلاء وهو من أئمتهم المشهورين :

العبد حق والرب حق   يا ليت شعرى من المكلف ؟!
إن قلت عبد فذاك رب   أو قلت رب ، أنى يكلف ؟!

وقال آخر : إن النصارى ضلوا لأنهم اقتصروا على عبادة ثلاثة ، ولو أنهم عبدوا الوجود كله لكانوا راشدين

ولأهل هذا المذهب العجيب أقوال ينفر منها من يقرؤها ولا يطيق سماعها فضلا عن أن يؤمن بها

واذن أنا خائف على الدكتور من هذا المذهب . خائف عليه

من أن يكون قد قرأ لبعض من كتب فى المسألة ، فراقه ماسمع وحسبه فلسفة وتعمقاً فى الدراسة ، ولم ينفذ إلى صميم المراد ، ولم يصل غاية المذهب ، لأنه لم يألف قراءته ، فلا غرابة أن تسمو فوقه أغراضه وأسراره ، ولا غرابة ألا يظل على آفاق هذا المذهب

الله فى نظر الدكتور

قال فى ص ١١٣ : « فلا بد لهذا الكل « أى الكون » من روح يمسكه ، منه نشأ وعنه تطور واليه يعود ، هذا الروح وحده هو الذى يجب أن يخضع له الانسان ، أما سائر ما فى الكون فهو خاضع لهذا الروح كالانسان سواء . والانسان والكون والزمان والمكان وحدة ، هذا الروح جوهرها ومصدرها »

هذا هو الله فى نظر الدكتور ، وهذا هو الذى تجب له العبادة وحده ، فالله عنده روح هى جوهر لهذه الخلائق . ولا أدرى ماذا يريد بجوهر أهو يريد أنه معنى الكون وصفته أم يريد أن الكون هو معناه وصفته أم يريد غير ذلك ؟! ولا نعرف أحداً من المسلمين سمى الله روحاً وجعله جوهراً للخليقة قبل مؤلفنا فى كتابه الجديد الطريف . وعلى كل حال أنا أنظر الى هذا القول بعين الحذر والريبة

الآخرة فى رأى الدكتور

قال ص ١٠١ : « الآخرة التى تحيط فيها النفس بكل الوجود فى كمال وحدته ، والتى يتلاشى فيها المكان والزمان ، وتنسى

فيها اعتبارات هذه الحياة الوضيعة الأولى الآخرة التى يصير فيها الضحى ولألاء شمسه الباهر ، والليل ودجاه الساجى ، والسموات والكواكب والأرض والجبال كلا واحداً تتصل به الروح الراضية المرضية . هذه هى الحياة التى يجب أن تكون اليها الغاية من سفر هذه الحياة »

هذه هى الآخرة عند مؤلفنا . وآخرته هذه مخالفة لآخرة جميع المسلمين . ولا نعلم من أين علم بأن النفس تحيط بكل الوجود فى كمال وحدته هنالك ، وأن المكان والزمان يتلاشيان وتنسى كل الاعتبارات ، كما لا ندرى من أين علم أن الضحى والشمس والليل والظلام والسموات والكواكب وكل شىء يكون كلا واحداً تتصل به الروح الراضية !!

والذى يعرفه المسلمون أن الليل والنهار والشمس والقمر وهذه الخلائق التى عددها الدكتور تتطاير يوم القيامة وتبعثر

ثم هل يسمح الدكتور بأن يدلنا على معنى اتصال الروح الراضية المرضية بهذه الخلائق كلها فى الآخرة ؟!

هل يرى ان الروح قديمة ؟

قال ص ١٢٠ : والروح !!! الروح الذى هو من أمر الله ، الروح المتصل بأزل الزمن وأبده ، هذا الروح ما عمل صالحاً ، فلا حجاب بينه وبين وجه الله ولا سلطان لغير الله عليه »

هذه هى الروح فى قول دكتورنا فهى متصلة بأزل الزمن وأبده . إذن هى قديمة عنده ، وإذن هى لابداية لها لأنها متصلة بأزل

الزمن وأبده . ولعله لا يدين مذهب التناسخ ؟ ! مذهب التناسخ الذى ينكره جميع المسلمين . وكلنا والحمد لله أرواحنا من أمر الله ، ولكنها ليست متصلة بأزل الزمان وأبده . ولا أحسب أحداً من الموجودين اليوم يعتقد أن روحه متصلة بأزل الزمن وأبده . والمسلمون يعلمون كافة أن هنالك حجاباً بين أرواحهم ، وإن كانت صالحة بارة ، وبين الله . فلا تستطيع روح ، مهما كانت سامية أن تتصل بالله الاتصال الحقيقى ، وأن يزال الحجاب بينها وبين الله . وقد صح فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال محدثاً عن الله : « حجابه النور » وقالوا له عليه السلام : هل رأيت الله ؟ فقال : «نور أنى أراه » وفى القرآن الكريم أن نبى الله موسى طلب منه تعالى الرؤية فلم يعط ما طلب .

الايمان فى نظر الدكتور

وفى ص ٤٩٢ يفسر الإيمان تفسيراً يحمل على الشك والريب ، تفسيراً يخالف فى ظاهره معنى الايمان عند الاسلام والمسلمين . ولتسمع عبارته :

« والايمان شعور روحى يحس به الانسان يملأ نفسه كلما اتصل بالكون وفنى فى لانهاية المكان والزمن وامتثل الكائنات كلها فى نفسه »

ولننظر ما هذا الايمان ؟ ! وما معنى هذا الفناء فى لا نهاية المكان والزمان ؟ ! وما معني امتثال الكائنات كلها فى النفس ؟ !

هذه كلها فى رأيى وفى رأى كل من يقرؤها ألغاز

والايمان الذى يثيب عليه الله الجنة والزحزحة عن النار هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وهو الاتيان بالأعمال الصالحة من صلاة وصيام وحج إلى غير ذلك

ولقد رأيت فى هلال يونيه سنة ١٩٣٥ مقالا للدكتور عنوانه : « العمل عبادة » ذكر فى ذلك المقال أن كل عمل يؤديه الانسان فى غير ما ظلم هو عبادة لله خالصة حتى الحفر فى الأرض والزراعة وجمع الأموال والتباهى بالقصور وزينة الدنيا . وهذا من عجائب الدكتور .

الصلاة والصيام فى رأيه

وفى ص ٤٩٣ يفسر الصلاة والصيام تفسيراً نحن منه فى شك ، تفسيراً نخشى ان يكون له خبء . قال فى الصفحة المذكورة : « ولا سبيل إلى معرفة هذه السنة إلا بادامة الاتصال بالكون والنظر فيه والتماس العون من الله للاهتداء إلى أسراره . إليه تعالى يتجه الانسان بقلبه وروحه . إياه يعبد وإياه يستعين . وهذه هى الصلاة وهذا هو الاتصال بالله شكراً على نعمته . فاذا أثقل جسمنا روحنا وطغت ماديتنا على انسانيتنا فقد وجب أن نكف جهد الطاقة عما يجعل الجسم يثقل الروح ويجعل المادة تطغى على الانسانية . وذلك هو الصوم »

والصلاة فى الاسلام هى هيئة مخصوصة ذات ركوع وسجود وقيام

وقعود، وذات قراءة وأدعية وتسبيح وأشياء أخر . والصوم هو الامساك عن الطعام والشراب وشهوة النفس وعن المحرمات شهراً كاملا من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . فهل يخفى هذا على مؤلفنا، وهل عبارته هذه تؤدى هذا المعنى

غلطة

وفى ص ٤٧١ يفسر علم محمد عليه السلام للغيب تفسيراً لا نرضاه ولا يرضاه من عرف ما الوحى ومن عرف ما النبوة . ويجتهد أن يجعل علمه للغيب كعلم سائر الناس أولى الرياضة، وقد يجعل ذلك من مناجاة الأرواح ومن اتصال أرواح الأحياء بالأموات . وهذا يؤدى إلى انكار الوحى الى الأنبياء .

تحريف

وفى ص ١٧٩ يعبث بقصة سراقة بن مالك ولحاقه رسول الله وأبا بكر فى سفر الهجرة عبثاً أى عبث ويحرفها تحريفاً أى تحريف، يتنكب ما رواه علماء الاسلام ومحدثوهم ومؤرخوهم مائلا إلى ما كتبه المستشرقون . قال :

« وبدأ محمد وأبو بكر يفكران فى امتطاء جمالهم إذ كانوا من سراقة قيد البصر وكان جواد سراقة قد كبا به قبل ذلك مرتين لشدة ما جهده فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح وأنه مدرك الرجلين فرادهما إلى مكة أو قاتلهما إن حاولا عن نفسيهما دفاعاً نسى كبوة جواده

ولزه ليمسك بيده ساعة الظفر ولكن الجواد فى قومته كبا كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره، وتطير سراقة وألقى فى روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته وأنه معرض نفسه لخطر داهم إذا هو هم مرة رابعة لانفاذ محاولته . هنالك وقف ونادى القوم أنا سراقة بن جعشم انظرونى أكلمكم فو الله لا أريبكم فلما وقفا ينظرانه طلب إلى محمد أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه » ... الخ

والذى ثبت فى قصة سراقة بن مالك : وأعرض عنه الدكتور، هو أنه لما اقترب منهما دعا عليه رسول الله فساخت قوائم فرسه، فطلب من الرسول عليه السلام ومن صاحبه أن يدعوا له ولا يمسها بسوء، فدعا له رسول الله، فنهض جواده، فرجع كافاً الطلب عنهما . والسبب فى إعراض الدكتور عن هذا أنه يأبى الايمان بالخوارق والمعجزات

الكتاب من الوجهة الفنية

لا أخفى على القراء أن كتاب حياة محمد لم يثر شيئاً من إعجابى من الوجهة الفنية التأليفية، بل أستطيع أن أقول بعد قراءته إنه من هذه الوجهة قد يكون فجاً غير ناضج، وقد يكون ضعيفاً فى حاجة شديدة إلى القوة والاجادة

للكتابة فى الدين فن خاص به، وللكتابة فى الأدب فن خاص به أيضاً، وللكتابة فى السياسة والقانون فن خاص بهما، ولكل علم فن خاص به . ومن أحسن الكتابة فى بعض هذه العلوم

لم يلزم أن يحسن الكتابة فيها كلها . فمن أجاد الكتابة فى القانون والسياسة والأدب والقصص لم يلزم أن يحسن الكتابة فى الدين . ولو حاول عالم من علماء الدين الكبار أن يكتب فى القانون لما استطاع الكتابة ، ولو كتب لما أحسن ، بل ولجعل نفسه عرضة للوم والزراية

إذن للدكتور هيكل العذر الواضح المقبول إذا ما كتب فى الدين وقصر تقصيراً كبيراً ، بل وله الشكر والثناء على ذلك الذى قصر فيه

ولأدلك على قصور الكتاب من هذه الوجهة ، بل على ضعفه ، بأول صفحة فى الكتاب وكفى بذلك دليلا مقنعاً

ذكر فى الصفحة الأولى أن الأذان دعاء إلى الصلاة لله وإلى الصلاة على رسول الله . والواقع أن الأذان دعاء إلى الصلاة لله فقط كما يقول المؤذن حى على الصلاة

وقال : « وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر ثم لصلوات العصر فالمغرب فالعشاء »

والصواب ثم لصلاة العصر فصلاة المغرب فصلاة العشاء ، أو لصلاة العصر فالمغرب فالعشاء ، أو ثم لصلوات العصر والمغرب والعشاء

وقال : « وكذلك سيكونون « أى سيذكرون محمداً » حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين »

وقال فى السطر التالى : « ولم يك محمد بحاجة إلى زمان طويل ليظهر دينه ولينتشر فى الخافقين » . . الخ

ففى السطر الأول ذكر أن الدين لم يظهر بعد ولم يتم الله نعمته على الناس بهذا الدين ، وفى السطر الثانى ذكر أن ذلك قد كان

وقال : « وفى كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمداً فى ضراعة وخشية وإنابة »

والذى يذكره المسلمون فى خشية وإنابة وضراعة هو رب محمد ورب كل شىء لا محمد

ذكر هذه الأمور كلها فى الصفحة الأولى من الكتاب . وهذا نموذج وضعناه تحت بصر القارىء يستطيع به أن يعرف مقدار نضوج الدكتور هيكل ونضوج كتابه فى الكتابة الدينية أو التحليلية الفلسفية كما يريد

وفى الكتاب خلاف كثير ، أى مايسميه الناس تناقضاً . وقد وقع فى المقدمة من ذلك شىء كثير . ذكر فيها أن الإخاء قد ظل قائماً بين المسلمين والنصارى طول حياة رسول الله . وذكر فى موضع آخر منها أن الإسلام وقف فى وجه النصرانية وقفة المناضل المستميت . كما ذكر فى موضع آخر أن النصرانية قد جردت جيشاً عرمرماً للقضاء على الإسلام ، ولدفع عدوان هذا الجيش كانت غزوة « تبوك » المشهورة وكما ذكر أن الله أنزل قوارع الآيات فى ذم النصارى وذم أهل التثليث . وذكر فى المقدمة أيضاً أن السبب فى عداوة النصارى للإسلام هو جهلهم بالإسلام ، وذكر فى موضع آخر منها أن السبب فى ذلك هو أن بين الدينين : الاسلام والنصرانية خلافاً جوهرياً ، خلافاً فى صلب العقيدة

وذكر فيها أيضاً أن الإسلام لم يكن يشتد فى الرد على النصارى ، ثم نقل فى مقدمته ، بعد هذا القول ، أشد قوارع الآيات فى الرد عليهم وفى تفنيد عقيدتهم . والأمثال من هذا النوع ، فى الكتاب عامة وفى المقدمة خاصة ، كثيرة . أفلا يدلك بعض هذا على أن الكتاب فى حاجة ماسة إلى النضوج والإجادة ؟!

لغة الكتاب

لا مشاحة بين القراء أن فى الكتاب ظرفاً ، وفيه رقة وبداعة ، وفيه خيالا عصرياً فرنسياً لذيذاً ، وفيه حلاوة ، وعليه طلاوة . لا مشاحة بين القراء فى وجود هذه الأمور . ولكن الكتاب فيه ، بعد ذلك ، أغلاط نحوية وأغلاط صرفية كثيرة ، وفيه تفكيك وقلة ارتباط بين جمله ، وفيه عبارات قد تعمى عن البيان وقد يعمى عنها البيان وقد يكون عسيراً جداً فهمها . وهذه أمور لا خلاف بين قراء الكتاب فيها . وقد كتب أحد الكتاب فى مجلة الرسالة مقالا خاصاً بأغلاط الكتاب اللغوية ، وذكر من ذلك شيئاً كثيراً

ونحن لا نرى بنا حاجة إلى إثبات هذه الأغلاط ، ولا إلى إثبات شيء منها . ولكن الذى نرى إثباته هنا هو أن نسدى النصيحة للدكتور ونطلب اليه أن يراعى القواعد العربية من نحوية وصرفية . وهذا أمر يسير على مثل الدكتور . ولقد يكون من الظلم لذلك الأسلوب الرقيق الذى وهبه الله « هيكلا » أن يكون مشوهاً باللحن والغلط ، ممسوخ الجمال بما فيه من أغلاط عربية ظاهرة . وأتذكر أن الدكتور قد أخرج

كتاباً سماه « ثورة الأدب » فكان فيه أغلاط عربية فانتقده الكتاب ، وأتذكر أن من ناقديه الدكتور طه حسين . وقد كان هذا كافياً لمؤلفنا أن يجانب هذا العيب المفروض على كتاباته . ولكن يظهر أنه لا يبالى هذه الناحية ولا يرى لها خطراً يستحق العناية والاهتمام . والأمر خلاف ما قدر وما ظن .

خاتمة

هذا بعض ما يؤخذ على كتاب هيكل من الجهة الايجابية . وليلاحظ أننا لم نتقص الكتاب جيداً ، وليلاحظ أيضاً أننا لم نؤاخذه إلا بما نراه خطيراً عظيما . ولنا عليه مآخذ أخر من الوجهة السلبية . ذاك أن فى الكتاب قصوراً واضحاً . فالكتاب فى حياة محمد كما سماه . إذن يجب أن يحيط بالأشرف الأكبر من هذه الحياة ، ويجب أن يحيط بالناحية العظمى منها . ونواحى الحياة عديدة . ولكن لنا أن نسائل هل وفى ذلك؟ هل كتب عن أشرف نواحى حياة محمد وعن أكثرها ؟ لعلنا لو أجبنا بالايجاب لكنا محابين للدكتور . فلقد أهمل أعظم النواحى من هذه الحياة السامية ، السامية حقاً ، حياة النبوة وكفى . وقصر كتابه على نواح قد لا تماثل ما أهمله خطراً وخطورة . بل إننا نرى من الظلم لحياة محمد عليه السلام أن نقول : إن هذا الكتاب يستحق هذا الاسم « حياة محمد » وبعبارة أخرى نقول : إنه كتب عنه كسياسى محارب ولم يكتب عنه كرسول عابد ، أو نقول : إنه كتب عنه كقائد ولم يكتب عنه كإمام أي إنه أهمل ناحية العبادة والتعلق بالسماء ، ذلك الأمر الذى هو

أبرز صفاته عليه السلام فى كل أدواره ومواقفه . ولا نشك أن من يقرأ هذا الكتاب يخرج منه على أن حياة محمد ماهى إلا حياة حربية محضة ، حياة كلها الغلبة وكلها الدماء وكلها البطش والجبروت. ولعلك لا ترضى منا هذا القول حتى نضع يدك على حجته ، فأقول : انظر إلى ما كتب عنه عليه السلام : فى جميع غزواته تجده قد كتب عن انتصاراته الباهرة وعن اذلاله لأعدائه ، وعن إحكام سياسته . وتجده قد أهمل تألهه وعبادته وتعلقه بالله . وقد كان عليه السلام لا يترك الصلاة فى حرب ولا سلم ولا فى حضر ولا فى سفر . وقد صلى بأصحابه صلاة الخوف وصلاة الجهاد عدة مرات بأنواع من الهيئات على حسب حال العدو وعلى حسب ما تسمح به حالة القتال . وكتاب السيرة كلهم يذكرون ذلك ويكثرون من ذكره . ولكن دكتورنا لم يذكر منه شيئاً مطلقاً وكذلك أهمل صيامه وسائر عباداته فى أسفاره وجهاده . وهنالك شىء آخر يدلك على قصور فى الكتاب ، أو على عيب فى الكتاب . ذلك أنه يذكر ما يأتى به رسول الله من مهارة فى الحرب ومن سياسة حكيمة راشدة ويعزوها اليه على أنه هدى اليها بعقله ، وعلى أنه أدركها بتفكيره ، ولا يعزوها بل ولا يعزو منها شيئاً إلى وحى الله وإلى نبأ جبريل .

وهو أيضاً يعزو انتصارات المسلمين على خصومهم الى شجاعتهم وإلى قوتهم وإلى تفانيهم فى حب الفناء . ولا يعزو شيئاً من ذلك الى لطف الله ونصرته . أى إنه يجعل انتصاراتهم على المخالفين هى انتصارات عادية طبعية . ولا ريب أن هذا خلاف القرآن ، وخلاف قول المسلمين كافة .

وشىء آخر فى الكتاب . وذلك أنه يعتمد على الضعيف من الروايات كثيراً . مثل ذلك أنه ذكر ص ٩٥ أن أول الوحى كان مناماً . وهذا القول فيه رواية ضعيفة ، والروايات الصحيحة المعتد بها خلاف ذلك ، ورأى المسلمين اليوم خلافه أيضاً

وشىء آخر فى قصور الكتاب ، وهو أنه لم ينقل فيه شيئاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حكمه المعجزة الباهرة . وحياة رسول الله كانت ملأى بأحاديثه ، ملأى بأقواله التى دونها رجال الحديث والتى يتغنى بها المسلمون فى الشرق والغرب . وعندى أن منشأ قصور الكتاب وعيبه جاءه من جهة اعتماده على المستشرقين الذين كتبوا حياة رسول الله عليه السلام . والمستشرقون لم يحيطوا بحياته إحاطة تمكنهم من أن يكتبوا فيها كتابة تقارب الصواب . ولو أنه اعتمد على علماء المسلمين لسلم من بعض ذلك

وقبل القاء القلم لا أنسى أن أقيد هنا ما يأتى :

أولا — شكر جريدة الكوكب على نشر هذه الحقائق العلمية

ثانياً — أنا حسن الظن بالدكتور . أرى أن ماوقع فيه من أغلاط لم يكن صادراً إلا عن حسن نية وأى إنسان مبرأ من الغلط ، ولكن من الناس المقارب ومنهم المباعد . ولهذا اعتقد أنه سوف يسره ما يواجه به من نقد برىء وسوف يستفيد منه

ثالثاً — أرى هذا الكتاب ، مع ماذكرنا ، مفيداً لأناس كثيرين ، مفيداً لقوم يحسبون الالحاد هو كل شىء فى هذا العصر ، مفيداً لقوم يحسبون التدين والايمان مقصورين على العامة والجهلاء ، وما حسبوا

أن رجالا مثقفين عصريين «كهيكل» يحرصون على الدين وعلى الايمان. وكم يسرنا أن يقتدى كتابنا الأعلام، أمثال الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد والأستاذ المازنى، بهيكل ولو أنهم فعلوا ذلك لآمن الناس جميعاً أو لازداد الاقبال على الدين

رابعاً — لا ندرى لماذا لم نسمع من علماء الأزهر، أولئك الذين يغضبون للوسيلة وللطواف بالأضرحة، والذين يغضبون على الوهابيين ويكيلون لهم من السب والايذاء ماهم به عالمون، صوت نقد وانكار على هذا الكتاب، وفيه ولا شك مما لا يرضاه هؤلاء الشيء الكثير. ألا يكون هذا دليلا على اشتغال القوم بالدنيا عن كل شيء حتى عن العقيدة وحتى عن انكار ما ينكرون؟

أسأل الله أن يصلح حال المسلمين، وأن يبعدهم عن مواضع الفتن والفتون، وأن يجعلهم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه

عبد الله على النجدى القصيمى

فهرس